كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

من أسرار البيان
في
آيات بسط الرزق وقدره في القرآن

إعداد

د/ وليد السيد مصطفى فرج
مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات فرع جامعة الأزهر بالمنصورة

(العدد الثامن والثلاثون الجزء الرابع ٢٠١٩م)

من أسرار البيان في آيات بسط الرزق وقدره في القرآن

وليد السيد مصطفى فرج
قسم البلاغة والنقد ، شعبة اللغة العربية ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ، جامعة الأزهر ، المنصورة ، مصر
البريد الإلكتروني : dr.waleedfarag@azhar.edu.eg

الملخص :
هذا البحث يحاول إثبات وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن ، وهو وجه البلاغة المتولدة من تضام وترابط الآيات ذات الموضوع الواحد عند ترتيبها على حسب ورود سورها في المصحف ، وتكمن أهميته فيما سبق ، وفي تدبره لمجموعة من الآيات التي ترتبط بموضوع العقيدة ، مما يجعله سبباً من أسباب الاهتداء ، بناء على ما يستنبطه من أسرار بلاغية معجزة يغفل عنها الكثيرون ، فيؤدي بذلك دوراً في خدمة المجتمع ، وهداية الأمة الإسلامية ، ويهدف إلى الكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن من خلال بيان بلاغة توالي آيات بسط الرزق وقدره في السياق القرآني ، كما يهدف إلى بيان خصائص السور التي وردت فيها تلك الآيات ، وإلى بيان بلاغة موقع كل آية من آيات البسط والقدر في سياق سورتها ومدى ارتباطها بالمقصود الأعظم للسورة ، كما يهدف إلى بيان الأسرار البلاغية لاختلاف الصياغة بين آيات بسط الرزق . وقد كان المنهج المتبع في هذه الدراسة منهجاً تحليلياً بلاغياً ، يعمد إلى تلمس العلائق والوشائج والأواصر التي تربط الآية بما قبلها ، وبما بعدها ، وتربطها بمقصود السورة التي وردت فيها ، ومن ثم استنباط الأسرار وراء اختلاف البناء نظراً لاختلاف المعاني ، خلوصاً إلى الموازنة بين الآيات للوقوف على مدى ملاءمة صياغة وبناء كل آية لسورتها .

الكلمات المفتاحية : الأسرار ، البيان ، الرزق ، البسط ، القرآن ، الآيات .

Among The Secrets Of The Statement In The Verses Of Extending Livelihood And Its Value In The Qur'an

Waleed Elsayed Mostafa Farag
Department of Division of rhetoric and criticism ' the department of Arabic language - College of Islamic and Arab Studies for Girls - Al Azhar university Elmansora ' egypt
Email : dr.waleedfarag@azhar.edu.eg

Abstract :
This is rhetorical research studies a new aspect of koranic inimitability .this aspect derives from The rhetorical relations between the verses which handle the same subject matters when arranged according to their sequence in the Holy Koran . the importance of this research does not lie only in what is mentioned before , but also in its contemplation of some verses which are related to the idea of bbelief . therefore, it is a kind of guidance dueto the inimitable rhetorical significances it comes up with , and which are overlookedby many people thus , it plays a role in the guidance of the Islamic world . The research aims at expressing koranic inimitability through studying The succession of the verses which handle extending and restricting provision. it also aims at explaining the characteristics of the suras where these verses are mentioned . in addition , it explains the rhetorical significance of the position of each verse hn relation to the purpose of its sura . it also aims at indicating the rhetorical significance of the different structures of the verses which describe extending provision . The research depends on an analytical rhetorical approach , it studies each verse in relation to what precedes and what follows it on one hand , and the purpose of the sura where this verse is mentioned on the other . in this way , the

significance of the structures differ according to the meanings of the verses . Thus , this approach shows the extent to which the structure of each verse is suitable for its sura .

Keywords : Significances , Expression , provision , Extending , Koran , Serses

المقدمة

الحمد لله القائل في كتابه العزيز: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (العنكبوت: ٦٢)، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، ما سأل عبدٌ ربَّه الرزاق ذا القوة المتين، وبعد،

فإن من فضل الله على عبده وبسطه عليه نعمه متتاليةً بلا انقطاع، أن يسَّر له صحبة كتابه المعجز تدبراً وتأملاً، فقد حباني الله بهذا الفضل في بعض بحوثي السابقة، حيث تناولت بعض آيات القرآن الكريم التي عُنيت بمعالجة موضوع واحد بالدراسة والتحليل، وكان مما انتهيت إليه في ذاك البحث أن وجوه إعجاز القرآن غير متناهية، وبتكرار تأمل وتدبر آيات القرآن استرعى انتباهي وجه من وجوه الإعجاز، وهو ما نجده من التتابع المنطقي العجيب، والارتباط الوثيق بين الآيات التي تضم موضوعاً واحداً، إذا ما أُخِذ في الاعتبار ترتيب سور القرآن، فيم يمكن أن نسميه بالبلاغة الموضوعية.

ولذا فإنني عمدت إلى جميع الآيات التي عنيت بإثبات حقيقة أن بسط الرزق وقدره مرده إلى مشيئة الله، بشرط أن تشتمل الآية على جملة: يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وذلك لارتباط هذه الحقيقة بالعقيدة، فالناس بين بطر، وقنوط إزاء تفاوت الأرزاق، ولو أنهم تدبروا الآيات الواردات في هذا الموضوع لَقَنِعُوا بما قسمه الله، ومن أجل هذا وسابقه من إثبات هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن، وهو البلاغة الموضوعية،كان هذا البحث بعنوان :

(من أسرار البيان في آيات بسط الرزق وقدره في القرآن)

وهو يهدف إلى الكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن من خلال بيان بلاغة توالي آيات بسط الرزق وقدره في السياق القرآني، كما يهدف إلى بيان

خصائص السور التي وردت فيها تلك الآيات، وإلى بيان بلاغة موقع كل آية من آيات البسط والقدر في سياق سورتها، ومدى ارتباطها بالمقصود الأعظم للسورة، كما يهدف إلى بيان الأسرار البلاغية لاختلاف الصياغة بين آيات بسط الرزق.

ولهذا فإن البحث ينشغل بالإجابة عن الأسئلة الآتية:

هل في توالي آيات بسط الرزق وقدره في السياق القرآني بلاغة؟

ما خصائص السور التي وردت فيها آيات بسط الرزق وقدره؟

ما مدى ارتباط آيات بسط الرزق في القرآن بعضها ببعض؟

ما بلاغة موقع كل آية من آيات البسط في سياق سورتها؟

ما مدى ارتباط آيات البسط بمقصود السور التي ترد فيها؟

لماذا اختلفت الصياغة بين آيات البسط؟

ما الأسرار البلاغية الكامنة وراء اختلاف الصياغة بين آيات بسط الرزق وقدره في القرآن؟

وقد كان المنهج المتبع في هذه الدراسة منهجاً تحليلياً بلاغياً، يعمد إلى تلمس العلائق والوشائج والأواصر التي تربط الآية بما قبلها، وبما بعدها، وتربطها بمقصود السورة التي وردت فيها، ومن ثم استنباط الأسرار وراء اختلاف البناء نظراً لاختلاف المعاني، خلوصاً إلى الموازنة بين الآيات للوقوف على مدى ملاءمة صياغة وبناء كل آية لسورتها.

وقد جاء البحث في مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، وثبت بأهم المصادر والمراجع.

أما المقدمة : فقد ذكرت فيها أسباب اختيار الموضوع وأهميته وأهدافه والمنهج المتبع في دراسته وكيفية تقسيمه.

وأما المبحث الأول فجاء بعنوان: بلاغة توالي آيات بسط الرزق وقدره في السياق القرآني.

وجاء المبحث الثاني بعنوان : سر ورود آيات بسط الرزق وقدره في السور المكية فقط.

وجاء المبحث الثالث بعنوان : بلاغة موقع كل آية من آيات بسط الرزق وقدره في سياق سورتها.

وجاء المبحث الرابع بعنوان : من الأسرار البلاغية لاختلاف الصياغة بين آيات بسط الرزق وقدره في القرآن .

ثم جاءت الخاتمة متضمنةً : أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة.

وختم البحث بثبت لأهم مصادره ومراجعه.

وأخيراً، فهذا جهدي، أخلصت فيه النية، فإن كنت موفقاً فمن الله وبفضله، وإن كنت غير ذلك فحسبي أنني حاولت، وما ضننت بجهد، والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول

بلاغة توالي آيات بسط الرزق وقدره في السياق القرآني

إن من عجيب أمر القرآن أنك إذا عمدت إلى بعض آياته التي تدور حول موضوع واحد، وتتناول قضيةً بعينها، وقمت بضم بعضها إلى بعض على حسب تسلسلها في السياق القرآني، ثم نظرت في أولها وأوسطها وآخرها وجدت تسلسلا منطقياً عجيبا وكأن هذه الآيات قد صيغت على هذا النحو من أول أمرها، ولم تكن كل وحدة من هذا الكل المتكامل المتولد من ضم بعضها إلى بعض، جزءاً أصيلا يضطلع بدور بالغ الأهمية في سياق سورة من سور القرآن، وذاك لون آخر من ألوان البلاغة والإعجاز.

وهذا التسلسل المنطقي العجيب الناجم عن سلك تلك المجموعة من الآيات ذات الموضوع الواحد في سلك متصل نجده في الآيات المشتملة على جملة يبسط الرزق، حيث تصاغ الآيات صياغة تتسق مع قواعد عرض الموضوع فتبدأ بذكر القضية مرسلةً بدون توكيد، مراعاةً لحال المخاطب الذي يفترض فيه أن يكون جاهلا بالحكم، وخالي الذهن عنه، فيما يسميه البلاغيون بالضرب الابتدائي من أضرب الخبر.

ويتجلى هذا في أول آية وردت في القرآن الكريم مشتملة على إثبات بسط الرزق وقدره لله عز وجل، وذلك في سورة الرعد في قوله تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)

هذا إذا ما تغافلنا عن كون اسمية الجملة من المؤكدات.

ثم تأتي الآية الثانية المشتملة على الجملة نفسها في سورة الإسراء، ولكن في هذه المرة تعاد القضية مؤكدةً، وكأنها جوبهت بالرفض أو الإنكار أو التردد على

أحسن الأحوال، فيقول تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(٣٠)

فنجد العبارة نفسها مع اختلاف في افتتاح الآية وختامها، مما سيتعرض له البحث لاحقاً.

والذي يعنينا الآن أن هذه الآية قد حَوَتْ من المؤكدات ما خلت منه سابقتها على افتراض مجابهتها بالشك أو الإنكار.

ثم تأتي الآية الثالثة في سورة القصص مؤكدةً أيضاً، ولكن فيها من الإضافات ما يدل على أن بعض عباد الله قد أقروا بهذه الحقيقة وآمنوا بها بعدما بدا لهم من التنكيل بمن أنكرها، وقد اشتملت هذه الآية أيضاً على زيادة الجار والمجرور(من عباده) قال تعالى: وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

كما اشتملت على أسلوب ويكأن، وسيأتي بيان الأسرار البلاغية لاختلاف الصياغة لاحقاً.

والمهم أن الآيات قد ارتقت من مجرد عرض القضية مرسلةً إلى عرضها مؤكدةً، إلى إقرار بعض العباد بها، وحكاية القرآن لقولهم، وصياغتهم المتفردة لهذه القضية وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ.

ثم تأتي الآية الرابعة في سورة العنكبوت مرددة القضية التي صيغت في الآية الأولى في سورة الرعد، مع إقرارها لزيادة الجار والمجرور(من عباده) الذي حكاه القرآن عن القوم الذين أقروا بهذه الحقيقة، وأضافت الآية الرابعة جاراً ومجروراً آخر لم يسبق له ذكر، وهو قوله (له) بعد الفعل(يقدر) يقول تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)

وكأن هذه الآية تعيد القضية بعد أن وجدت لها صدى في نفوس المتلقين، حيث أقرُّوا بها ورددوها، مُقِرِّينَ بالعبودية لله عز وجل، ولكنهم لم يفطنوا إلى أن تقدير الرزق ربما يكون نعمةً، كما يكون البسط منةً من الله وفضلاً، ولذا فقد جاءت الآية بزيادة الجار والمجرور (له) بعد الفعل (يقدر)، وخُتِمَت بإثبات علم الله. بكل شيء مُؤَكَّداً.

ثم تأتي الآية الخامسة في سورة الروم مفتتحةً بالسؤال عن رؤيتهم لتحقق هذه القضية– قضية بسط الرزق وقدره – في الواقع المشاهد، أو الواقع المروي عبر العصور، وكأن هذا السؤال يحيل المخاطب إلى قصة قارون مع قومه، وما بدر من الفريق الذي أقر بالقضية وآمن بها بعدما رأى ما حل بقارون وكأن الناس قد غفلوا عن تلك العبرة، فأعيدت لهم القضية مفتتحة بالسؤال، ومختتمة ببيان أنها من الآيات التي تحمل الناس على الإيمان، قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّـهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون(٣٧)

وتأتي بعد ذلك في سياق القرآن الآيتان السادسة والسابعة في سورة واحدة وهي سورة سبأ، تتفقان في افتتاحهما بفعل الأمر (قل) الموجه إلى النبي ‘ وتختلفان في أن الأولى جاءت قضية بسط الرزق وقدره فيها موجزةً بدون الزيادات الواردة في سورتي القصص والعنكبوت (من عباده)، و (له)، وختمت بنفي العلم عن أكثر الناس، بينما جاءت الآية الثانية مشتملة على زيادة قوله: (من عباده)، وقوله: (له) بعد الفعل (يَقْدِرُ) ومختتمةً بكون الله هو خير الرازقين، قال تعالى: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

وهكذا نرى أن القضية كلما أعيدت أضيف إليها شيء جديد يحث على الإيمان بها، أو يعلل لانصراف الناس عنها.

ثم تأتي آية ثامنة في سورة الزمر تذكر القضية نفسها مفتتحةً بالسؤال عن العلم بها، ومُختتمةً بالحكم بكونها من الآيات لقوم يؤمنون يقول تعالى: أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون(٥٢)

وكان من الطبعي أن تتلو هذه الآية الآيات السابقات، حيث يحيل السؤال في أولها على ما سبق ويؤكد ختامها أن هذه القضية من الآيات الداعية إلى الإيمان، والدالة عليه.

ثم يأتي ختام حديث القرآن عن بسط الرزق وقدره في آيتين في سورة الشورى وهما الآيتان التاسعة والعاشرة في تسلسل حديث القرآن عن هذه القضية موظفاً جملة يبسط الرزق فيها جميعاً إلا الآية الأخيرة فقد صار الفعل المضارع ماضياً في سياق شرطي، مشعراً بختام الحديث.

قال تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

وقال تعالى: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)

فجاءت الآية الأخيرة تعليلاً لعدم بسط الرزق لجميع العباد، فكانت خير ختام لهذا الحديث، فيكون حديث القرآن عن قضية بسط الرزق وقدره قد جمع بين حسن ابتداء وبراعة استهلال، وحسن ختام.

وبعد، فإني أكاد أجزم بأننا لو حاولنا أن نرتب هذه الآيات ترتيباً آخر غير الذي ورد في السياق القرآني، لأفسدنا تسلسل المعاني، وفرقنا بينها تفريقاً لا يلتئم به شملها أبداً، وذلك لبناء بعضها على بعض، ولإحالة بعضها إلى بعض، ولِنمو

المعنى في آية لاحقة بعدما كان جنيناً في سابقتها، ولإزالة بعضها لشبهات تثيرها بعضها، ولتضمن بعضها إجابات لأسئلة أثارته سابقاتها، ولمراعاتها لطبيعة النفس البشرية التي تتلقى الأمر بشيء من الريبة، ثم تذعن له إن أقيمت عليه الأدلة وَعَضَّدَتْه الشواهد والبراهين، وقد تعاند وتنكر لِهَوًى ، وغير ذلك من الأحوال التي تطرأ على المتلقي، والتي نراها قد روعيت في تسلسل آيات بسط الرزق وقدره في السياق القرآني.

وهذا التسلسل المنطقي الوارد في الآيات التي تعالج موضوعاً واحداً، مما يشهد بأن ترتيب السور في المصحف قد كان بتوقيف، ولم يكن باجتهاد الصحابة كما ذهب إليه البعض(١).

وإن تكرار أصل المعنى مع اختلاف الصياغة اختلافاً يسيرا قد كان من وجوه بلاغة القرآن وإعجازه كما ذكر ذلك الرافعي حيث قال: (وههنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجباً: وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قَصَصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها، أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة وترديد المنة والتذكير بالنعم واقتضاء شكره، إلى ما يكون من هذا الباب؛ وهو مذهب للعرب معروف...

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحـ محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ ١ ص ٢٥٧، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م، وصورته دار المعرفة بيروت لبنان وجاء فيه: وَأَمَّا تَرْتِيبُ السُّوَرِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ فَاخْتُلِفَ هَلْ هُوَ تَوْقِيفٌ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ من فعل الصحابة أو يُفَصَّلُ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ.

وقد خفي هذا المعنى (التكرار) على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نَفَاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأتي بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة، وهو – أخزاهم الله – كان أروعَ وأبلغ وأسرى عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها) [1].

وحقيقة أن الله هو الذي يبسط الرزق ويقدره من الحقائق المتعلقة بقدرة الله المطلقة وبالدلالة على وحدانيته سبحانه، ولذا فقد اقتضت بلاغة القرآن وإعجازه تصريف القول في هذه الحقيقة تصريفاً تأكيدا وتثبيتاً لهذه النعمة، وغرسها في نفوس العباد، واقتلاع ما قد يعاندها من القلوب والعقول.

(١) ينظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ١٣٤ وما بعدها بتصرف، دار الكتاب العربي بيروت، ط ٨، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

المبحث الثاني
سر ورود آيات بسط الرزق
وقدره في السور المكية فقط

وردت آيات بسط الرزق في القرآن الكريم في ثماني سور هي على ترتيب السياق القرآني : الرعد، والإسراء، والقصص والعنكبوت، والروم، وسبأ والزمر، والشورى.

وكل هذه السور من السور المكية باتفاق العلماء[١] إلا سورة الرعد فمختلف في مكيتها ومدنيتها والراجح كونها مكية[٢].

وعلى هذا فإن جميع السور التي اشتملت على آيات بسط الرزق تكون من السور المكية، بل من أواخر ما نزل بمكة بين حادثة الإسراء، والهجرة إلى المدينة [٣] وإذا عرفنا أن من أهم خصائص السور المكية "الدّعوة إلى التّوحيد، وإثبات

(١) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تح ـ محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ ١ ص٣٨ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤ م، وينظر المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله يوسف جديع العنزي، ص ٦٣. مركز البحوث الإسلامية، ليدز، بريطانيا، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

(٢) ينظر الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، تحـ محمد عبد السلام محمد، ص ٥٣٥ وما بعدها، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ١٤٠٨هـ، وقال صاحب في ظلال القرآن ﷺ ومكية السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة أدائها، أو في جوها العام. الذي لا يخطئ تنسمه من يعيش فترة في ظلال القرآن) ينظر في ظلال القرآن، جـ ٤ ص ٢٠٣٩ دار الشروق بيروت، القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ..

(٣) ينظر النظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص ٣٣ وما بعدها، مكتبة الآداب، بدون.

الرّسالة، وإثبات اليوم الآخر، والوعد والوعيد، وجدال المشركين بالبراهين العقليّة والآيات الكونيّة"[١].

وإذا كان إثبات بسط الرزق وقدره لله عز وجل من دلائل قدرته ووحدانيته، تبين لنا السر في ورود آيات بسط الرزق في السور المكية دون غيرها من السور المدنية، وذلك لعنايتها ببيان قدرة الله عز وجل، وأنه المستحق للعبادة دون غيره، يقول الزمخشري معلقاً على آية بسط الرزق الواردة في سورة الرعد اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) مُثْبِتاً دلالتها على قدرة الله ووحدانيته، وأن الخطاب فيها لأهل مكة: "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ أي الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره، وهو الذي بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم وَفَرِحُوا بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة، وخفى عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرا يتمتع به كعجالة الراكب، وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك"[٢].

ويبين الطيبي وجه إفادة التركيب في قوله: الله يبسط الرزق للتخصيص بقوله: "ويمكن أن يوجه تفسير المصنف بأن يقال: إن في التركيب تكرير الحكم، فاكتسى الحكم قوة، فيفيد التأكيد، فناسب أن يضمن التخصيص، لأن التخصيص ليس إلا تأكيد الحكم بالنفي والإثبات، والتأكيد أبداً يرفع إرادة التجوز عن الحكم، والوجه أن ذلك التخصيص من قبل اختصاص الاسم الجامع بالذكر، وبناء (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) عليه.

(١) ينظر المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله العنزي، ص ٥٨.

(٢) ينظر الكشاف للزمخشري، جـ ٢ ص ٥٢٨، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

يؤيده قوله في قوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) [الزمر: ٢٣]: "وإيقاع اسم "الله" مبتدأ، وبناء (نَزَّلَ) عليه: فيه تفخيم لـ (أَحْسَنَ الْحَدِيثِ)، وتأكيد لإسناده إلى الله تعالى، وأنه من عنده، وأن مثله لا يجوز إلا أن يصدر عنه"(١).

وسواء كان التركيب في قوله تعالى: الله يبسط الرزق مفيداً للتخصيص، كما ذهب إليه الزمخشري، أو مفيداً لتقوية الحكم وتأكيده، كما رجحه الطاهر بن عاشور، حيث قال: (وَأَفَادَ تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: اللَّهُ يَبْسُطُ تَقْوِيَةً لِلْحُكْمِ وَتَأْكِيدًا، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ أَنْ يَعْلَمَهُ النَّاسُ وَلَفْتَ الْعُقُولِ إِلَيْهِ عَلَى رَأْيِ السَّكَّاكِيِّ فِي أَمْثَالِهِ.

وَلَيْسَ الْمَقَامُ مَقَامَ إِفَادَةِ الْحَصْرِ كَمَا دَرَجَ عَلَيْهِ «الْكَشَّافُ» إِذْ لَيْسَ ثَمَّةَ مَنْ يَزْعُمُ الشَّرِكَةَ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ، أَوْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فَيَقْصِدُ الرَّدَّ عَلَيْهِ بِطَرِيقِ الْقَصْرِ) (٢).

أقول سواء كان التركيب مفيداً لهذا أو ذاك، فإنه ولا ريب دال على قدرة الله وحكمته ووحدانيته، مما سوغ لتكرار هذا التركيب بزيادات في عشرة مواضع في السور المكية المعنية بإثبات الوحدانية لله، وتقرير ما له من صفات الكمال.

وقد أفاد ختام بعض هذه الآيات المشتملة على بسط الرزق وقدره لله عز وجل بجملة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الدلالة على كون هذا الحكم مما يوجب الإيمان أو يدل عليه قال تعالى في سورة الروم أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

(١) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف، جـ ٨ ص ٥٠٩، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط ١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

(٢) ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ ١٣، ص ١٣٤، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

وقال سبحانه في سورة الزمر أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

يقول البقاعي معلقاً على ختام آية سورة الروم: "(إن في ذلك) أي الأمر العظيم من الإقتار في وقت والإغناء في آخر والتوسيع على شخص والتقتير على آخر، والأمن من زوال الحاضر من النعم مع تكرر المشاهدة للزوال في النفس والغير، واليأس من حصولها عند المحنة مع كثرة وجدان الفرج وغير ذلك من أسرار الآية (لآيات) أي دلالات واضحات على الوحدانية لله تعالى وتمام العلم وكمال القدرة، وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا هو لكن (لقوم) أي ذوي همم وكفاية للقيام بما يحق لهم أن يقوموا فيه (يؤمنون) أي يوجدون هذا الوصف ويديمون تجديده كل وقت لما يتواصل عندهم من قيام الأدلة، بإدامة التأمل والإمعان في التفكر". (١)

ويعلق الطاهر بن عاشور على ختام آية الزمر فيقول: "وَجَعَلَ فِي ذَلِكَ آيَاتٍ كَثِيرَةً لِأَنَّ اخْتِلَافَ أَحْوَالِ الرِّزْقِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ التَّصَرُّفَ بِيَدِ الله تَعَالَى ينبئ عَنْ بَقِيَّةِ الْأَحْوَالِ فَتَحْصُلُ فِي ذَلِكَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ دَالَّةٌ عَلَى انْفِرَادِ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّصَرُّفِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ. وَجُعِلَتِ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمُوا ذَلِكَ وَتَخَلَّقُوا بِهِ وَلَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ لِلْمُشْرِكِينَ الغافلين عَنهُ" (٢).

وإن كنت أميل إلى أن الآيات للمؤمنين بالفعل، ولغيرهم ممن يتوقع إيمانه مستقبلاً- بإعمال فكر وعمق تأمل-، وذلك بناءً على دلالة الفعل المضارع يؤمنون على الحال أو الاستقبال، ولو أراد المؤمنين فقط لقال: إن في ذلك لآيات للمؤمنين، ولم يقل: لقوم يؤمنون.

---

(١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، جـ ١٥، ص ٩٧، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون.

(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢٤ ص ٣٩.

المبحث الثالث

بلاغة موقع كل آية من آيات بسط الرزق وقدره في سياق سورتها

يقول البقاعي ذاكراً القاعدة العامة التي ترشد إلى سر ارتباط الآيات بعضها ببعض داخل السورة القرآنية: "قال شيخنا أبو الفضل محمد بن محمد المشدَّالي المغربي: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا

هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك إن شاء الله تعالى وجه النظم مفصلا بين كل آية وسورة" (١).

وبناءً على هذه القاعدة يمكننا أيضا استنباط البلاغة الكائنة في موقع الآية في سياق سورتها.

١-بلاغة موقع آية البسط في سورة الرعد.

تكاد آراء العلماء تتفق في المقصود العام الذي سيقت له سورة الرعد وهو الدلالة على وحدانية الله، وبيان أن القرآن حق، وأنه منزلٌ من عند الله عز وجل يقول البقاعي: "ومقصودها: وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه، وتارة يتأثر عنه، مع أن له صوتاً وصيتاً، وإرغاباً وإرهاباً، يهدي بالفعل.

(١) ينظر نظم الدرر جـ ١ ص ١٨.

وتراه لا يتأثر، بل يكون سبباً للضلال والعمى.

وأنسب ما فيها لهذا المقصد: الرعد، فإنه مع كونه حقاً في نفسه، يسمعه الأعمى والبصير، والبارز والمستتر، وتارة يتأثر عنه البرق والمطر وتارة لا. وإذا نزل المطر: فتارة ينفع إذا أصاب الأراضي الطيبة وسلمت من عاهة، وتارة يخيب إذا نزل على السباخ الخوارة، وتارة يضر بالإغراق، أو الصواعق، أو البرد، وغيرها"(١).

ويقول صاحب في ظلال القرآن: "إن موضوعها الرئيسي ككل موضوع السور المكية كلها على وجه التقريب- هو العقيدة وقضاياها..

هو توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة جميعا ومن ثم قضية الوحي وقضية البعث.. وما إليها... تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة: قضية الوحي بهذا الكتاب، والحق الذي اشتمل عليه. وتلك هي قاعدة بقية القضايا من توحيد الله، ومن إيمان بالبعث، ومن عمل صالح في الحياة. فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الآمر بهذا هو الله، وأن هذا القرآن وحي من عنده سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم"(٢).

ويقول الطاهر بن عاشور: "وَمَعَانِيهَا جَارِيَةٌ عَلَى أُسْلُوبِ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ على الوحدانية وتقريع الْمُشْرِكِينَ وَتَهْدِيدِهِمْ"(٣).

(١) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي، جـ ٢ ص ١٩٣، دار المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٠٨، ١٩٨٧م.

(٢) ينظر في ظلال القرآن السيد قطب، جـ ٤ ص ٢٠٣٩ / ٢٠٤٣ بتصرف، دار الشروق بيروت القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ.

(٣) ينظر التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ٧٦ وما بعدها.

ولا يختلف رأي الشيخ عبد المتعال الصعيدي عن الآراء السابقة فيقول: "يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن، كما يقصد من السور الثلاث المذكورة قبلها، ولهذا ذكرت هذه السورة بعدها، وقد ابتُدئت بمقدمة ذكر فيها أن الذي أنزل إليه من ربه هو الحق، وأن الذي يمنعهم من تصديقه أنه يدعو إلى التوحيد وهم لا يؤمنون به، وقد استطرد فيها إلى إثبات هذا التوحيد، ثم عاد إلى المقصود من الكلام على تنزيل القرآن، فذكر شبهتين لهما عليه وأخذ في إبطالهما، وبهذا ينحصر المقصود من هذه السورة في هذه الأمور الثلاثة"(١).

ويرى بعض المفسرين المحدثين أن السورة كلها تفصيل لإجمال وارد في آيتين في سورة البقرة، هما قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

ثم يأخذ في تعداد نقاط التشابه بين هاتين الآيتين وبين السورة، مثبتاً نظريته في الوحدة القرآنية(٢). ثم يقول: "وعلى هذا فسورة الرعد تفصيل لقضايا مجملة في الآيتين من سورة البقرة، فهي تعريف على الله، وهي عرض لأقوال للكافرين، وفيها أمثال كثيرة يضربها الله عزّ وجل، وفيها تدليل على أن هذا القرآن

(١) ينظر النظم الفني في القرآن ص ١٥٦.

(٢) ينظر الأساس في التفسير لسعيد حوى، جـ ٥ ص ٢٧٢٠، دار السلام القاهرة، ط ٦، ١٤٢٤هـ.

حق، وفيها تفصيل لسمات الذين يستحقون الاهتداء بهذا القرآن، وفيها تفصيل لصفات الفاسقين، وفيها وفيها مما ستراه من خلال التفسير"[1].

هذا عن مقصود سورة الرعد، فماذا عن بلاغة موقع آية بسط الرزق وقدره في سياقها؟، وماذا عن مدى ارتباطها بمقصود السورة؟

أقول: إن هذه الآية قد جاءت في سياق تعداد الآيات على قدرة الله المطلقة مما يستلزم توحيده والإيمان به، كما أنها جاءت بعد ذكر الطائعين لله والمشركين به، والعاصين له، وجاءت بعد ذكر العالمين بالحق أولي الألباب والأعمى المعرض عن الحق، ليبين أن هداية المهتدين، أو ضلال الضالين، وأن العلم المفضي إلى الإيمان، والجهل المؤدي إلى النكران مناطه مشيئة الله عز وجل، وهو داخل في إطار الرزق بسطاً وتقديراً، وقد صرحت السورة بهذا المعنى في قوله تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إليه مَنْ أَنَابَ)

ونلحظ ذكر المشيئة المطلقة في آية بسط الرزق الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر... كما نجدها في آية الهداية والضلال.

كما نلحظ أن بناء الآية جاء مشاكلاً لبناء الآيات الدالة على مطلق قدرة الله في السورة كلها، حيث افتتح باسم الجلالة ، ثم بني عليه حكم دال على الوحدانية وطلاقة القدرة الإلهية.

ونلحظ أن عمدة التعبير في السورة كلها هو أسلوب الطباق الدال على طلاقة القدرة لله عز وجل، فجاءت الآية مشاكلةً لهذا النمط التعبيري السائد، فطابقت بين يبسط ويقدر.

(١) ينظر الأساس في التفسير لسعيد حوى ، جـ ٥ ص ٢٧٢٠ وما بعدها.

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره العلماء عن مقصود السورة: أنها سيقت لبيان مشيئة الله المبنية على طلاقة قدرته وإحاطة علمه، وبالغ حكمته، فلو شاء لأجاب الكفار إلى ما طلبوا من الآيات، ولكن حكمته أبت ذلك لعلمه بما لا يعلم عباده.

ولذلك فإننا نجد السورة قد كررت ذكر المشيئة في غير موضع، من ذلك الآية المذكور فيها الرعد الذي سميت به السورة وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)

ومنها قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)

وقوله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)

ومن بين هذه المواضع الموضع الذي ذُكر فيه بسط الرزق وقدره

قال تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)

فنجد أن هذه الآية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمقصود السورة، ومتلاحمة تمام التلاحم مع سياقها القبلي والبعدي.

فكل نعمة ذكرت في السورة يمكن أن تدخل تحت بسط الرزق، وذلك لكون الآية دالةً على سنة من سنن الله في خلقه، ومن بين تلك النعم: نعمة الإيمان

والهداية، والعلم المؤدي إليهما، وفي المقابل نجد الضلال والجهل والإعراض، يمكن أن تدخل تحت قبض الرزق وتقتيره على العباد، لحكمة إلهية لا يعلمها إلا الله.

ولست أجنح إلى المغالاة إن قلت إن هذه الآية تُعدُ محوراً أساسا في السورة كلها، باندراج كل النعم المذكورة ونقائضها تحتها، ولولا خشية الإطالة لرددت -بغير تكلف- كل آية من آيات السورة إليها، وليس ذلك بمستعص على من أمعن التدبر والتأمل.

وليس ذلك بمستغرب من أسلوب القرآن الكريم، وذلك لما يمتاز به (من اللين والمطاوعة على التقليب، والمرونة في التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مغيبة، وفي علم الله ما يكون من بعد)[1].

(وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث. كأنك لا تسمع كلامًا ولغات بل ترى صورًا وحقائق ماثلة. وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطتَ به خُبرًا ووقفت على معناه محدودًا؛ هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك.. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة. كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع.

(١) ينظر إعجاز القرآن للرافعي ص ١٤٣.

ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت. وهكذا نجد كتابًا مفتوحًا مع الزمان يأخذ كل منه ما يسر له؛ بل ترى محيطًا مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال)[1].

ويحتمل أن تكون هذه الآية بمنزلة الاستئناف البياني إجابة عن سؤال يدور بخلد المؤمنين والكافرين على السواء يقول الطاهر بن عاشور: "هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا جَوَابًا عَمَّا يَهْجِسُ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنْ سَمَاعِ قَوْلِهِ: أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ الْمُفِيدُ أَنَّهُمْ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَقُولُونَ: كَيْفَ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَازْدَادُوا بِهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَهَلَّا عَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْخَصَاصَةِ كَمَا قَدَّرَ تَعْذِيبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ... وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَيَسْخَرُونَ مِنَ الْوَعِيدِ مُزْدَهِينَ بِمَا لَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ. فَأُجِيبَ الْفَرِيقَانِ بِأَنَّ اللَّهَ يَشَاءُ بَسْطَ الرِّزْقِ لِبَعْضِ عِبَادِهِ وَنَقْصَهُ لِبَعْضٍ آخَرَ لِحِكْمَةٍ مُتَّصِلَةٍ بِأَسْبَابِ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا"[2].

ويكون الاستئناف البياني (بجملة تُنَزَّل منزلة جواب عن سؤال بحسب التتبع النفسي لاستشراف أي مستمع وترقبه وتساؤله، والاستئناف البياني صلة معنوية تستوجب ترك العطف كما لا يعطف الجواب على السؤال... وتلك الصلة المعنوية

(١) ينظر النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، ص ١٥١ وما بعدها، دار القلم، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م..

(٢) ينظر التحرير والتنوير، جـ ١٣ ص ١٣٤ بتصرف.

تحقق الربط وتغني عن أداة العطف، وذلك لما فيها من تنصّت وتتبع واستشراف وترقب وانفعال بحركة المعنى)[١].

كما يمكن أن تُحمل هذه الجملة على كونها تعقيباً وتذييلاً على ما ذكره الله قبلها من علم العالمين، وهداية المهتدين، وما ذكره من ضلال الضالين وفساد المفسدين، وما ذكره أيضاً من النعيم الذي ينتظر المؤمنين، والجحيم المتربص بالكافرين، وكأنها تُرْجِع ذلك إلى سنة الله عز وجل في توزيع الرزق -بسطاً وتقديراً- على عباده لحكمة لا يعلمها إلا هو.

كما أنها تمهد لذكر أن الهداية والضلال يرجعان إلى مشيئة الله عز وجل.

٢- بلاغة موقع آية البسط في سورة الإسراء.

وقد اختلف في مقصودها بين قائل بأنه الإقبال على الله عز وجل، وقائل بأنه إثبات حادثة الإسراء وغير ذلك مما قالوه.

يقول البقاعي: "ومقصودها: الإقبال على الله وحده، وخلع كل ما سواه، لأنه وحده المالك لتفاصيل الأمور، وتفضيل بعض الخلق على بعض" [٢].

ويقول صاحب في ظلال القرآن: "العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول- صلى الله عليه وسلم- وموقف القوم منه في مكة. وهو القرآن الذي جاء به، وطبيعة هذا القرآن، وما يهدي إليه، واستقبال القوم له.

---

(١) ينظر شرح دلائل الإعجاز د محمد إبراهيم عبد العزيز شادي، ص ٣٢٠ بتصرف دار اليقين، المنصورة مصر، ط ٢، ٢٠١٣ م، وينظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تحـ محمود شاكر، ص ٢٣٥، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط ٣، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

(٢) ينظر مصاعد النظر، جـ ٢ ص ٢٣٠.

واستطراد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها. وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي، والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع.. كل ذلك بعد أن يعذر الله- سبحانه- إلى الناس، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل «وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا«.

ويتكرر في سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه"[1].

ويرى الشيخ عبد المتعال الصعيدي أن المقصود من هذه السورة ثلاثة أمور فيقول: "يقصد من هذه السورة ثلاثة أمور: أولها إثبات حادثة الإسراء وقد كان الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فاستدعى هذا بيان فضل هذا المسجد وذكر بعض من أخبار أهله وثانيها الموازنة بين كتابي المسجدين: القرآن والتوراة وقد استدعى هذا ذكر بعض مما أتى به القرآن من الحكم والمواعظ وثالثها بيان حكمة الإسراء من اختبار الناس به وقد عاد بعد هذا إلى بيان فضل القرآن فانتهى به الكلام في هذه السورة" [2].

وأقول: إن سر ارتباط آية بسط الرزق بآيات بقية السورة، وبلاغة موقعها يكمن في أن الله عز وجل قد ذكر في هذه السورة قصة بني إسرائيل، وما أجراه عليهم من الهزيمة مرتين بسبب إفسادهم، ومن نصرهم والتوسيع عليهم في الرزق في أوقات أخرى، ربما بسبب توبتهم أو لاستدراجهم، والمهم أن الله بسط لهم رزقه في أوقات وقدره عليهم في أوقات أخرى لأنه الخبير البصير بأحوالهم.

(١) ينظر في ظلال القرآن جـ ٤ ص٢٢٠٨.

(٢) ينظر النظم الفني في القرآن ص ١٧٦.

ثم إن السورة قد ذكرت الإيمان المؤدي إلى النعيم، كما ذكرت الإعراض والكفر المفضي إلى الخلود في الجحيم، ومعلوم أن الأول من نعم الله على عبده، والثاني من حرمانه له.

وفي السورة بيان لآيتي الليل والنهار، ولعلي لا أغلو إن قلت: إن هاتين الآيتين تمثلان ما يطرأ من أحوال على الإنسان، فهو في نهار النعمة، أو في ليل النقمة والحرمان، يستضيئ بنور الغنى، أو يتخبط في ظلمات الفقر.

وفي السورة تكرار لذكر العبودية، وذكر الربوبية، وفي آية بسط الرزق افتتاح بقوله: إن ربك، واختتام بقوله: كان بعباده خبيراً بصيرا، فبناءً على كونه خبيرا بصيرا يشاء بسط الرزق أو تقديره.

ولأنه خبير بصير بذنوبهم يشاء الإنعام عليهم استدراجاً، ليأخذهم بعد ذلك بالعذاب. والخذلان، وعلى الرغم من هذا فإنه يعجل النعيم لمريد الدنيا بقدر مشيئته سبحانه، ولمن يشاء وعطاؤه سبحانه غير محظور فهو يمد به مريد الدنيا ومريد الآخرة على السواء وفق مشيئته المبنية على حكمته وعلمه المحيط، فسنة التفضيل جارية في الدنيا، وهي في الآخرة أعظم، وقد تكرر ذكر سنة التفضيل في هذه السورة مراراً ولذلك ارتباط بآية بسط الرزق إذ التفضيل منه، وسببه كون الله خبيرا بصيرا بالمفضل وبغيره.

وقد عنيت السورة ببيان استحقاق الله سبحانه للعبادة بسوق العديد من الأدلة على وحدانيته، وقد أحسن البقاعي حيث جعل مقصود السورة الإقبال على الله، وذلك لأنه الملك والمدبر لكل شيء، فإذا ما علم الإنسان أن الله يبسط رزقه أو يقدره وفق مشيئته وبناءً على حكمته وعلمه، فلا يسعه إلا أن يتجرد من كل شيء، ويقبل مذعناً راغباً فيم عند الله، ولو ذهبت أتتبع المعاني الواردة في السورة، لردها إلى هذه الآية، لطال الكلام بما لا يتسع له هذا البحث، وحسبي ما ذكرت.

وأما عن ارتباط الآية بما قبلها وما بعدها، فيمكن جعلها تعليلا لسابقها، وتمهيداً للاحقها يقول الطاهر بن عاشور: "مَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَوْقِعُ اعْتِرَاضٍ بِالتَّعْلِيلِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ، وَالنَّهْيِ عَنِ التَّبْذِيرِ"(١).

ويقول الألوسي: "إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ تعليل لقوله سبحانه وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ إلخ كأنه قيل: إن أعرضت عنهم لفقد الرزق فقل لهم قولا ميسورا ولا تهتم لذلك فإن ذلك ليس لهوان منك عليه تعالى بل لأن بيده جل وعلا مقاليد الرزق وهو سبحانه يوسعه على بعض ويضيقه على بعض حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فما يعرض لك في بعض الأحيان من ضيق الحال الذي يحوجك إلى الإعراض ليس إلا لمصلحتك"(٢).

ويرى البيضاوي أن في قوله: إن ربك يبسط... تسلية للرسول، وأنه تمهيد للنهي عن قتل الأولاد في الآية اللاحقة(٣).

ولا مانع من أن يحمل قوله: "إن ربك يبسط" على كونه جواباً لسؤال اقتضاه النهي الوارد في الآية السابقة ولا تجعل يدك، ولا تبسطها... فيهجس في نفس السامع سؤال عن سر هذا النهي، فيجاب بقوله: إن ربك يبسط الرزق وهذا ما يسميه البلاغيون بشبه كمال الاتصال وقال عنه الخطيب القزويني : "وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يُصار إليه إلا لجهات لطيفة، إما لتنبيه السامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامك

(١) ينظر التحرير والتنوير، ج ١٥ ص ٨٦.

(٢) ينظر روح المعاني للألوسي، تحـ علي عبد الباري عطية، ج ٨ ص ٦٥ دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ ١٤١٥هـ.

(٣) ينظر تفسير البيضاوي، تحـ محمد المرعشلي، جـ ٣ ص ٢٥٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.

بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ، وهو تقدير السؤال وترك العاطف، أو لغير ذلك مما ينخرط في هذا السلك، ويسمى الفصل لذلك استئنافا، وكذلك الجملة الثانية أيضا تسمى استئنافا"[١].

ولذلك فقد جاء الجواب مؤكداً، لكونه من الضرب الطلبي، كما هو معلوم في أضرب الخبر[٢].

٣- بلاغة موقع آيات بسط الرزق في سور القصص والعنكبوت والروم.

يرى البقاعي أن مقصود سورة القصص هو التواضع لله عز وجل فيقول: "ومقصودها: التواضع للهِ، المستلزم لرد الأمر كله إليه، الناشئ عن الإيمان بالآخرة، الناشئ عن الإيمان بنبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – الثابتة بإعجاز القرآن، المظهر للخفايا، على لسان من لم يتعلم قط من أحد من الخلق، المنتج لعلو المتصف به"[٣].

ويقول في سورة العنكبوت: "ومقصودها: الحث على الاجتهاد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الله تعالى وحده، من غير تعريج على غيره سبحانه أصلاً لئلا يكون مثل المعرِّج، مثل العنكبوت، فإن ذلك مثل كل من عرج عنه سبحانه، وتعوض عوضا منه، فهي سورة ضعف الكافرين، وقوة المؤمنين"[٤].

(١) ينظر الإيضاح بتعليق البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي جـ ٢ ص ٦٩، مكتبة الآداب القاهرة، ١٩٩٩ م، ٢٠٠٠م.

(٢) ينظر المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥.

(٣) ينظر مصاعد النظر جـ ٢ ص ٣٣٨.

(٤) ينظر المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٤٥.

ويقول مبيناً مقصود سورة الروم: "ومقصودها: إثبات الأمر كله لله، فتأتي الوحدانية مطلقاً في الإلهية وغيرها، والقدرة على كل شيء فيأتي البعث ونصر أوليائه، وخذلان أعدائه، وهذا هو المقصود بالذات"(١).

فهذا البيان من البقاعي في مقصود السور الثلاث يمكن جمعه بقولنا: إنها تهدف جميعاً إلى بيان أن الله وحده هو الرب والإله المستحق للتعظيم والعبادة الخالصة، وذلك لقدرته المطلقة، وعلمه المحيط، وحكمته البالغة، وأن جزاء من يعرض عنه الهوان في الدنيا، والعذاب في الآخرة، وجزاء المذعن المؤمن العلو في الدنيا والآخرة.

وقد تضمنت سورة القصص قصة قارون الذي اغتر بما وسع الله عليه، وبما أفاض عليه من رزقه، حتى طغى وادعى لنفسه علماً آتاه السعة في الرزق، ونسي أن الرازق هو الله، وأنه عبد من عباده، وفي هذا السياق جاءت آية بسط الرزق محكية على لسان القوم الذين رأوا ما حل بقارون من العذاب جزاء علوه وبغيه، والذين تمنوا من قبل أن يؤتوا مثلما أوتي من حظ الدنيا ونعيمها، فلما بدا لهم معاينةً ما حل به من الخسف، ندموا على ما قالوا من قبل، وأدركوا الحقيقة التي حكاها القرآن على لسانهم، من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفق مشيئته المبنية على حكمة بالغة، وعلم محيط.

ووجه بلاغة موقع هذه الآية في سياق سورتها واضح، لا يحتاج إلى مزيد من التفصيل.

وإذا كانت سورة القصص من السور التي نزلت قبل الهجرة، بل إنها من أوائل ما نزل من السور المشتملة على آيات بسط الرزق، إن لم تكن أولها، فيمكننا الحكم بأن هذه القضية قضية قديمة في بني آدم، وهي غفلتهم عن حقيقة بسط

(١) ينظر مصاعد النظر جـ ٢ ص ٢٤٩.

الرزق وتقديره وأن مردها لمشيئة الله وحكمته، مما يكون مدعاة للبطر، أو الاعتراض على حكم الله عز وجل، والسخط على ابتلائه، والرفض لقضائه، والظن بأن المُنَعَّم في الدنيا من المكرمين، وأن المقتر عليه، من المبعدين المهانين.

وعلى هذا فإن هذه الآية الواردة في سورة القصص تكون أول ما صافح آذان من نزل عليهم القرآن بهذا الشأن، وما بعدها من الآيات يعد تكراراً وتأكيداً لحكمها، ولعلي لا أبعد إن ادعيت أننا لو تتبعنا هذه الآيات على ترتيب نزولها، لوجدنا فيها من أوجه البلاغة ما تتحير فيه العقول.، من ارتباط وتداخل وتناجي، ومن ذلك أن هؤلاء النادمين قد أدركوا حقيقة عبوديتهم لله عز وجل مما يلزم عنه التواضع له والرضا بقضائه، كما ذكر البقاعي في مقصود هذه السورة وشواهده وأدلته من السورة أكثر مما يمكن حصره، وبناءً على هذا الإدراك نطقوا بلفظ العبودية في قولهم: وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

وإذا كانت سورة الإسراء هي التالية في النزول لهذه السورة فقد جاء فيها ذكر الربوبية والعبودية كذلك إحالة إلى هذا المعنى القديم الذي ينزل لأجله الوحي من السماء إلى الأرض قال تعالى في سورة الإسراء : إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)

بل إن أول آية من سورة الإسراء قد صرحت بذكر العبودية للنبي ، قال تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [١] وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا [٢] ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ

إِنَّـهُ كَـانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤)

وقد صرحت الآيات بعبودية نوح، وأمرت بالتوكل على الله وحده وعدم اتخاذ وكيل من دونه، ونهت عن العلو في الأرض والإفساد فيها وغير ذلك من المعاني التي تلتقي مع المقصود من سورة القصص والعنكبوت والروم وغير ذلك من السور التي اشتملت على آيات بسط الرزق.

وأما عن بلاغة موقع آية البسط في سورة العنكبوت، فقد وردت في سياق الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، حتى لو اضطر الإنسان إلى الهجرة، وأن من دلائل وحدانيته، واستحقاقه للعبادة أنه يرزق كل دابة، وأن من نواميسه وسننه في خلقه بسط الرزق وقدره، فلا خوف من الهجرة إلى بلاد يجهلون كيف يرزقون فيها، جاء هذا في سياق يبين إقرار المشركين بالربوبية من غير إقرار بالألوهية، يقول تعالى في سورة العنكبوت: يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)

فمن الواضح أن آية بسط الرزق تابعة ومترتبة على إقرارهم بأنه الخالق، فمن قدر على الخلق يكون قادراً على الرزق بسطاً وقدراً، ثم إنه قد ذكر بعدها سبباً

من أهم أسباب الرزق وهو تنزيل الماء من السماء ليحيي به الأرض من بعد موتها وكأنها كانت فقيرة فأغناها الله من غير تدبير منها ولا حيلة، فلو تأمل من ينكر قدرة الله على الرزق وحكمته في جعله متفاوتاً بين عباده هذه الآية لَأَقَرَّ بوحدانية الله وأخلص له العبادة وتوكل عليه حق توكله، ولكن المنكرين غير معملين لعقولهم في الآيات المبثوثة في الكون الفسيح.

وأما عن بلاغة موقع آية بسط الرزق في سورة الروم فقد وردت في سياق يعنى ببيان الجبلة الإنسانية التي يطغيها الغنى، ويلقي بها في هوة الشرك والمعاصي، والتي يخضعها الفقر، وما يمسها من ضر، فتلجأ حينئذ إلى الله تستجير به، لينتشلها من أدران الفاقة، ويلقي بها في حضن النعيم الدنيوي فالبشر بين حالين: حال البطر، وحال القنوط.

تأتي الآية في هذا السياق لتحيل إلى ما مضى من ذكر من وسع عليهم فطغوا مثلما مر في قصة قارون في سورة القصص، ولتبين أن من أدرك حقيقة أن بسط الرزق وقدره مرده إلى مشيئة الله، فإنه يكون من المؤمنين، أو لعله إن تدبر هذه الحقيقة أن يكون منهم، فلا يبطر ولا يقنط، يقول تعالى: وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)

وإن من عجيب أمر القرآن الكريم أننا نجد آية بسط الرزق في هذه السورة قد أتبعت بالأمر بإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقوقهم، في الوقت الذي سبق هذا الأمر آية بسط الرزق في سورة الإسراء يقول تعالى: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١)

والارتباط بين سياق الآية في سورة الروم، وسياق الآية الأخرى في سورة القصص جلي، فكأن الآيات في الأولى تصف ما وقع من قارون في الثانية.

ومن الملاحظ على سياقات هذه الآيات الواردات في السور التي مرت أن بسط الرزق دائما يأتي في السياقات الدالة على قدرة الله المطلقة، ويأتي أيضاً عند الدعوة للتوحيد بالعبادة، وعند الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، وعند ذكر الإيمان والكفر، والضلال والهدى، والنعيم والجحيم، وعند تعداد دلائل القدرة والوحدانية.

وأما عن علاقة جملة يبسط الرزق بما قبلها في سورة القصص فقد جاءت بعد ويكأن وقيل إن هذه الكلمة بمعنى ألم تر، وقيل إنها بمعنى رحمة لك وقيل إن هذه الكلمة مركبة من وي المفيدة للتعجب أو التندم والتحسر ومن كأن التي ربما تكون غير مفيدة للتشبيه، وربما تفيده على تقدير أنهم شبهوا الحال المطلقة بما

هو واقع في حيزها من حقيقة بسط الرزق وقدره بمشيئة الله وفيه دلالة على شدة يقينهم بهذه الحقيقة حتى غدت مشبهاً به[1].

وأغلب الظن أنها تحتمل هذا كله بالإضافة إلى ترجمتها عن حالهم المضطربة بعدما عاينوا من الخسف الواقع بقارون، تلك الحال الجامعة بين التعجب والتندم والتحسر والتذبذب بين اليقين والشك، والخوف من الخسف، وكأنهم يصارعون أنفسهم الخبيثة التي تأبى الإذعان، ولكن يقهرها ما عاينته من المحسوس، ولذا كرروا اللفظة ثانيةً ويكأنه لا يفلح الكافرون مرغمين أنفسهم على الإيمان والإذعان.

وإذا حملنا هذه الكلمة على معنى ألم تر فيكون ارتباطها بآية الروم جلياً، إلا أنه آثر في القصص ويكأن ليفيد المعاني التي مرت.

وأما عن علاقة جملة الله يبسط الرزق في سورة العنكبوت بما قبلها وما بعدها فهي تكميل لقوله: في الآية السابقة الله يرزقها وإياكم، المفيد للتخصيص على رأي الزمخشري، وجاءت الآية بعدها تأكيداً لها يقول الطيبي: (وهذه الآية أعني قوله تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ إلخ تكميل لمعنى قوله سبحانه: اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ لأن الأول كلام في المرزوق وعمومه وهذا كلام في الرزق وبسطه وقترته، وقوله سبحانه: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ إلخ معترض لتوكيد معنى الآيتين وتعريض بأن الذين اعتمدتم عليهم في الرزق مقرون بقدرتنا وبقوتنا كقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الذاريات: ٥٨] وقال صاحب الكشف قدس سره: اعترض ليفيد أن

(١) ينظر روح المعاني جـ ١٠ ص ٣٢٩.

الخالق هو الرزاق وأن من أفاض ابتداء وأوجد أولى أن يقدر على الإبقاء وأكد به ما ضمن في قوله عزّ وجلّ: (وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون..)[١].

وأما عن ارتباط جملة يبسط الرزق بقريناتها في سورة الروم فقد أوضحه الطيبي بقوله: "إنه تعالى لمّا حَكى في جنس الناس أنَّهم إذا أذاقَهم منه رحمةً فرحوا بها بَطِرِينَ أَشِرِينَ، وإنْ تُصبْهم سيِّئةٌ قَنَطُوا من رحمة الله، أَنكَر عليهم ذلك، ونَبَّههُم على أنَّ تلك الإذاقة والإصابة من بَسْط الله الرِّزقَ وقَبْضِه، وقال: فلا يكن منكم بَطَرٌ عند البَسْطِ بل اشكُروا اللهَ، وأنفِقُوا ممّا رَزَقكمُ اللهُ في سبيله ووَجْهِه، في الأقربينَ واليَتامى والمساكين ليزيدَكم من فَضْله، وتفوزوا بالفلاح عاجلاً وآجلاً، فلا يُوجد منكم يأس أيضًا عند القَبْض، بل ارجِعُوا إلى الله مُنيبينَ؛ لأنَّ ذلك من شؤم معاصيكم"[٢].

٤- بلاغة موقع آيتي بسط الرزق في سياق سورة سبأ.

يقول البقاعي في بيان مقصود سورة سبأ: "ومقصودها: أن الدار الآخرة التي أشار إليها آخر الأحزاب بالعذاب والمغفرة، بعد أن أعلم أن الناس يسئلون عنها، كائنة لا ريب في إتيانها، لما في ذلك من الحكمة وله عليه من القدرة.

ولقصة سبأ التي سميت بها السورة مناسبة كبيرة لهذا المقصد لما فيها من، الآيات الشهودية المشهودة – لاسيما عند العرب – على قدرته سبحانه على، الإيجاد والإعدام، للذات والصفات، والتحويل لما يريد من الأحوال.

والتصرف بالحكمة في الإعطاء والمنع ابتداء وجزاء لمن شكر، أو كفر"[٣].

---

(١) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف، جـ ١٢ ص ١٩٨، وينظر روح المعاني جـ ١١ ص ١٣.

(٢) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف جـ ١٢ ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٣) ينظر مصاعد النظر جـ ٢ ص٣٧٧.

وأقول: إن السورة معنية في غير موضع منها ببيان علم الله المحيط، والاستدلال على قدرته وحكمته، وقد ذكرت من القصص ما يؤيد أن من عباد الله من يشكر على نعمته كآل داود، ومنهم من يكفر ويبطر على الرغم من أن الله عز وجل قد بسط له رزقه بسطاً لا زيادة عليه، مثلما بدر من قوم سبأ.

وقد وردت آيتا بسط الرزق في سياق بيان أن التوسعة والبسط في الرزق لا يمكن أن يكون مقياساً للكرامة على الله، كما لا يكون تضييق الرزق وقدره بحسب المشيئة الإلهية، دليلاً على هوان المقتر عليه، وأن الغنى قد يطغي، وأن الفاقة قد تُصلح، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة مع وضوحها وتكررها في كل مكان وزمان، كما أنهم يغفلون عن أن تضييق الرزق ربما يكون لمصلحة المضيق عليه، وأن الله هو خير الرازقين يخلف على من أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته.

ثم إن افتتاح السورة بقوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) .

يدل على أن الملك لله وحده، وأن علمه محيط بكل شيء، ولهذان المعنيان ارتباط وثيق بآيات بسط الرزق، لأن من كانت هذه صفاته من شمولية الملك والقدرة، وإحاطة العلم، فإنه يبسط ويقدر أرزاق عباده على حسب مشيئته التابعة لحكمته والمبنية على قدرته.

وفي السورة دعوة للتأمل في الكون للوقوف على قدرة الله الباهرة، وفيها تهديد بأن الله قادر على أن يخسف الأرض بالكافرين مثلما فعل بقارون الذي بغى

وطغى وبطر واغتر بما رزقه الله عز وجل وبيان أن في الكون من الآيات ما يؤمن به المقر بعبوديته لله قال تعالى: أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

ثم تذكر الآيات ما كان من شكر آل داود، وما كان من كفر قوم سبأ ولهذا ارتباط أيضاً بآيات بسط الرزق في السورة لكونه دليلا محسوساً على قدرة الله عز وجل، وعلمه بنفوس عباده الذين تتغير أحوالهم وتختلف تجاه النعمة المخولة لهم من الله فمنهم الشاكرون ومنهم الكافرون.

وتمضي السورة متحدثة عن إيمان المؤمنين، وكفر الكافرين وهداية المهتدين، وضلال الضالين ولهذا كله ارتباط ببسط الرزق وقدره إذ أن هذه الأشياء مما يمكن اندراجها تحته.

ولسياق آيتي البسط في هذه السورة ارتباط بسياق آية البسط في سورة الرعد إذ أن الآيات هنا توضح ما أجمل هناك فقد ذكرت سورة الرعد سوء المآل للذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر به أن يوصل ويفسدون في الأرض، وحكمت عليهم بأن لهم اللعنة وسوء الدار، وقلنا إن قوله هناك: الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر استئناف بياني للإجابة عن سؤال مقدر ربما يهجس في نفوس الكفار إذ يسخرون من التهديد والوعيد محتجين بما لهم من سعة في الرزق، وما يعانيه المؤمنون من الفاقة والضيق، وقلنا إن الآية ردت على سخريتهم تلك بإرجاع البسط والقدر لمشيئة الله وحكمته، وأنه لا ارتباط له بكرامة الأغنياء ولا هوان الفقراء يقول تعالى: وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦).

ونجد الآيات هنا تذكر أقوال المترفين الكافرين من إنكارهم للعذاب بسبب غناهم، وما زعموه من أفضليتهم مستدلين بها على حسن مسلكهم ورضا الله عنهم فيقول تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

فتأتي الآية الأولى في بسط الرزق قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) أمراً للنبي بإبطال لزعم الكافرين بأنهم الأكرم على الله فأغناهم، وأن المؤمنين قد هانوا عليه فحرمهم، وبيان أن بسط الرزق وقدره مبني على المشيئة التابعة للحكمة والقدرة والعلم، ولكن هذه الحقيقة لا يعلمها أكثر الناس.

كما أن قياس الكافرين للدار الآخرة على الدار الدنيا قياس فاسد.

ثم تأتي الآية الثانية للبسط في سورة سبأ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ، تكريراً بقصد التأكيد دفعاً لزعم الكافرين مع زيادات مفيدة مثل: من عباده لبيان أن الخلق جميعاً عباد الله ومثل يقدر له، لبيان أن القدر في الرزق

ربما يكون لمصلحة المقدر عليه، وأن الله خير الرازقين، وأن المال لا ينقص بالإنفاق فإن الله يخلف على المنفقين.

يقول الألوسي: (مساق الآية للوعظ والتزهيد في الدنيا والحض على التقرب إليه تعالى بالإنفاق وهذا بخلاف مساق نظيرها المتقدم فإنه للرد على الكفرة، وأيضا ما سبق عام وما هنا خاص في البسط والتضييق لشخص واحد باعتبار وقتين كما يشعر به قوله تعالى هنا لَهُ وعدم قوله هناك، والضمير وإن كان في موضع من المبهم إلا أن سبق النظير خاليا عن ذلك وذكر هذا بعد مشتملا عليه كالقرينة على إرادة ما ذكر فلا تغفل[1].

ويفرق الطاهر بن عاشور بين الآيتين بقوله: "فَالَّذِي تَقَدَّمَ رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَالْمَذْكُورُ هُنَا تَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْعِبَارَاتُ وَاحِدَةٌ وَالْمَقَاصِدُ مُخْتَلِفَةٌ. وَهَذَا مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ الْوَاحِدُ صَالِحًا لِغَرَضَيْنِ وَأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى طَائِفَتَيْنِ"[2].

ونجد أن سياقات الحديث عن الإيمان والكفر، والضلال والهدى، والنعيم الذي ينتظر المؤمنين، والجحيم المعد للكافرين، والدعوة إلى وحدانية الله وإفراده بالعبادة، والاستدلال على قدرته وحكمته وعلمه، لا تغيب عن جو السورة، كما لم يغب السياق الأقرب المشترك بين آيات بسط الرزق في القرآن، وهو سياق الحث على الإنفاق في سبيل الله.

(١) ينظر روح المعاني ج ـ ١١ ص ٣٢٣.

(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢١٩.

٥- بلاغة موقع آية البسط في سياق سورة الزمر.

يقول البقاعي مبيناً مقصود سورة الزمر: "ومقصودها: الدلالة على أنه سبحانه صادق الوعد، وأنه غالب لكل شيء، فلا يعجل، لأنه لا يفوته شيء ويضع الأشياء في أوفق محالها[١].

ويقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي مبيناً أن مقصود السورة والغرض العام منها هو الدعوة إلى إخلاص العبادة لله: "يقصد من هذه السورة الحثُّ على إخلاص العبادة لله تعالى، والنهي عن اتخاذ الوسائل من الأولياء والأولاد ونحوهم، ولهذا يدور السياق فيها على إقامة الأدلة والآيات على بطلان هذا الاعتقاد"[٢].

ويجعل صاحب الظلال السورة مقصورة على غرض واحد وهو التأكيد على وحدانية الله عز وجل فيقول: "هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد. وهي تطوف بالقلب البشري في جولات متعاقبة وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة وتهزه هزا عميقا متواصلا لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها، وتنفي عنه كل شبهة وكل ظل يشوب هذه الحقيقة. ومن ثم فهي ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها يعرض في صور شتى"[٣].

ويمكنني القول إذن بناءً على ما سبق: إن بسط الرزق وقدره حسب مشيئة الله من أقوى الأدلة الداعية إلى الإيمان بالله عز وجل وإخلاص العبادة له، وطرح ما عداه من الشركاء المزعومين.

---

(١) ينظر مصاعد النظر جـ ٢ ص ٤٢٣.

(٢) ينظر النظم الفني في القرآن ص ٢٦٥.

(٣) ينظر في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٣٠٣٣.

ولعل ذلك هو السر وراء ختام هذه الآية بجملة: إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، حيث يتفق هذا الختام مع الجو العام للسورة، وبهذا تتآزر الآية وتتضافر مع سوابقها ولواحقها في سياق السورة لأداء الغرض العام الذي سيقت له.

وههنا ملمح لطيف وهو أن سورة الزمر هي السورة قبل الأخيرة في سياق السور التي وردت فيها آيات بسط الرزق حيث تختم هذه السور بسورة الشورى وهي تالية لهذه السورة في ترتيب السور في المصحف.

ومعنى هذا أن الحديث أوشك أن ينتهي، ولذا فإن سورة الزمر تذكر قضية يمكن جعلها تعليلاً لقضية بسط الرزق وقدره ثم تُكرر هذه القضية تأكيداً في سورة الشورى وتلك القضية هي قوله تعالى في الزمر: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)

وتكررت في قوله تعالى في سورة الشورى: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

فنجد الآية في سورة الزمر المشتملة على الحكم بتخصيص كون مقاليد السموات والأرض لله، قد خُتمت بالحكم على الكافرين بآيات الله بالخسران، وقد سبقت الإشارة إلى ختام آية بسط الرزق في السورة نفسها بالحكم بأن هذه القضية قضية البسط والقدر من الآيات الدالة على الوحدانية والداعية للإيمان. فكأن آية المقاليد تحكم على- من أنكر رجوع التفاوت في الرزق بسطاً وتقديراً إلى مشيئة الله- بالكفر والخسران.

ثم تأتي آية المقاليد والبسط في الشورى لتجمع بين تخصيص كون مقاليد السموات والأرض لله، وإثبات رجوع البسط والقدر إلى مشيئته معللةً ذلك بعلمه المحيط قال تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢).

وتجدر الإشارة إلى أن جملة له مقاليد السموات والأرض لم ترد في القرآن إلا في هذين الموضعين.

ثم إن سورة الزمر تؤكد – مثلما أكدت سورة الروم من قبل، وسورة سبأ على قضية بطر الإنسان عند النعمة وإنابته إلى الله عند الضر يقول تعالى: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) ولذلك ارتباط بقضية بسط الرزق وقدره وفق مشيئة الله

ثم إن سياق آية البسط في هذه السورة يحيل إلى سياق أختها في سورة الروم، ويذكر بسياق أختها الواردة في قصة قارون في سورة القصص يقول تعالى: فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

وعن ارتباط آية بسط الرزق في سورة الزمر بما قبلها، وعن سر افتتاحها بقوله: أولم يعلموا وافتتاح آية الروم بقوله: أولم يروا يقول البقاعي: "ولما ثبت أن الضار النافع إنما هو الله، من شاء أعطاه، ومن شاء منعه، ومن شاء استلبه ووضعه بعد ما رفعه، وكان التقدير: ألم يعلموا أن ما جمعه من قبلهم لم يدفع عنهم

أمر الله، عطف قوله: (أولم) ولما كان السياق لنفي العلم عن الأكثر، وكان مقصود السورة بيان أنه صادق الوعد ومطلق العلم كافٍ فيه، عبر بالعلم بخلاف ما مضى في الروم فقال: (يعلموا) أي بما رأوا في أعمارهم من التجارب"[١].

٦- بلاغة موقع آيتي البسط في سورة الشورى.

تكاد آراء العلماء تتفق في المقصود من سورة الشورى على أنه بيان أن شرع الله واحد منذ خلق الخلق إلى قيام الساعة فيقول صاحب الظلال: "هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة، حتى ليصح أن يقال: إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعا لتلك الحقيقة الرئيسية هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوحدانية، وتعرضها من جوانب متعددة كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها. وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها. كما تلم بقضية الرزق: بسطه وقبضه وصفة الإنسان في السراء والضراء.

ولكن حقيقة الوحي والرسالة، وما يتصل بها، تظل- مع ذلك- هي الحقيقة البارزة في محيط السورة، والتي تطبعها وتظللها. وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها"[٢].

(١) ينظر نظم الدرر جـ ١٦ ص ٥٣٢.

(٢) ينظر في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٣١٣٦ وما بعدها.

ويقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي: "يقصد من هذه السورة بيان اتفاق الرسل على شرع الإسلام من أولهم إلى آخرهم، وإنذار من يخالفه بعذاب الدنيا والآخرة، وتبشير من يؤمن به بحسن الثواب فيهما"(١).

ويقول البقاعي: "ومقصودها: الاجتماع على الدين، الذي أساسه الإيمان، وأمُّ دعائمه الصلاة، وروح أمره الألفة بالمشاورة، المقتضية لكون أهل الدين كلهم فيه سواء، كما أنهم في العبودية لشارعه سواء.

وأعظم نافع في ذلك الإنفاق، والمواساة فيما في اليد، والعفو والصفح عن المسيء والإذعان للحق، والخضوع للأمر، وإن صعب وشق، وذلك كله هو الداعي إليه هذا الكتاب الذي هو روح جسد هذا الدين، المعبر عما دعا إليه من محاسن الأعمال، وشريف الخلال بالصراط المستقيم"(٢).

وقول البقاعي: وأعظم نافع في ذلك الإنفاق، والمواساة فيما في اليد... كفانا مشقة إعمال الفكر لاستنباط الرابط بين آيتي بسط الرزق في هذه السورة، وبين سياقها العام ومقصودها الأعظم، وذلك لأنه يؤكد ما ذهبنا إليه من قبل من ارتباط آيات بسط الرزق وقدره في القرآن بسياقات متعددة من أهمها سياق الحث على الإنفاق في سبيل الله، وقد مر بنا عند التعرض لآية البسط في سورة القصص، تلك الآية الواردة في سياق قصة قارون الإشارة إلى أن هذه الحقيقة حقيقة رجوع بسط الرزق وقدره إلى مشيئة الله من الحقائق القديمة قدم الإنسان، واستدللنا على ذلك بأن سورة القصص من أوائل السور نزولا مشتملة على هذه الحقيقة، وأن هذه القضية قد وردت فيها حكاية عن قوم قارون.

(١) ينظر النظم الفني في القرآن ص ٢٧٣.

(٢) ينظر مصاعد النظر جـ ٢ ص ٤٥١.

وقد اشتملت السورة أيضاً على بيان صفات المؤمنين المتوكلين على الله ومن بينها صفة الإنفاق مما رزقهم الله وذلك بعد أن افتتحت الآيات بتقرير أن ما يؤتاه الإنسان في الدنيا ليس سوى متاع زائل، وأن ما عند الله هو خير وأبقى: قال تعالى: فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)

وقد مر بنا في سورتي الروم والزمر أن في حقيقة رجوع بسط الرزق وقدره لمشيئة الله آيات لقوم يؤمنون، وقد وجهت إيثار التعبير بقوله: لقوم يؤمنون بدلاً من قوله للمؤمنين بأن تلك الحقيقة آية لمن هو مؤمن بالفعل تدل على إيمانه، أو أنها آية لقوم يتوقع إيمانهم مستقبلا عند تدبرهم في آيات الله في كونه وفي خلقه ومن أهمها تلك الآية آية بسط الرزق وقدره وفق المشيئة الربانية.

وقد حفلت السورة أيضاً بسياق الحديث عن قدرة الله المطلقة المتمثلة في مشيئته التي لا يردها شيء، وفي آياته الكونية الداعية إلى إيمان المتفكرين الذين يعقلون ويسمعون ويعلمون، وتلك السياقات قد صاحبت آيات بسط الرزق في جميع السور التي وردت فيها مثلما وجدنا في سورة الرعد، وسورة الروم وسورة سبأ والإسراء وغيرها.

وكذلك نجد سياقات الحديث عن الإيمان والكفر والضلال والهدى، والدعوة إلى إخلاص العبادة لله، والتحذير من اتخاذ الشركاء والأولياء من دونه، وغير ذلك من السياقات التي تحتفي بها السور المكية، والتي صاحبت حديث القرآن عن بسط الرزق وقدره بمشيئته سبحانه.

وكذلك نجد الحديث عن معجزة الإسلام الخالدة القرآن الكريم، وأنه الحق المنزل من السماء، الذي يهدي إلى كل خير وبه صلاح البشرية كلها لو كانوا يعلمون، نجد هذا الحديث حاضنا للحديث عن بسط الرزق وقدره كما وجدنا في سورة الرعد وسورة الإسراء وفي سورة الزمر وفي هذه السورة أيضاً.

ثم إننا نجد في سورة الشورى تعليلات متعددة- لشفاء صدور المؤمنين- لقضية بسط الرزق وقدره فيقول تعالى: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)

ومن الظواهر الأسلوبية التي طغت على تركيب الآيات في السور المشتملة على بسط الرزق وقدره بناء الخبر على لفظ الجلالة الله، حيث تفتتح به الآيات المشتملة على دلائل قدرته ووحدانيته، وحكمته البالغة، وعلمه المحيط، وقد يبنى على الضمير(هو) العائد إليه.

ثم إن السورة تؤكد أيضاً حقيقة الجبلة الإنسانية التي فطرت على البطر أو القنوط تلك الحقيقة التي تكرر ذكرها في السور المشتملة على آيات بسط الرزق يقول تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨)

وكذلك نجد افتتاح السورة وختامها يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بقضية البسط والقدر للرزق، وذلك لتأكيدهما على أن الله له ما في السموات وما في الأرض، وأنه هو العزيز الغالب، الحكيم الذي تنبني مشيئته على حكمته وقدرته وعلمه، وأن جميع الأمور مصيرها إليه يقول تعالى في مفتتح السورة: حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ

يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)

ويقول تعالى في ختامها: صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

وعن ارتباط الآية الأولى لبسط الرزق في سورة الشورى بما قبلها يقول الطاهر بن عاشور جاعله كالنتيجة لما قبله: "وَمَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ كَمَوْقِعِ الَّتِي قَبْلَهَا تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ النَّتِيجَةِ لِمَا تَقَدَّمَهَا، لِأَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ الْجُمَلُ بَعْدَهَا إِلَى قَوْلِهِ: يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ [الشورى: ١١] مِن انْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ، ثَبَتَ أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالرِّزْقِ... وَجُمْلَةُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ مُبَيِّنَةٌ لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَجُمْلَةُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ هُوَ كَالْعِلَّةِ لِقَوْلِهِ: لِمَنْ يَشاءُ، أَيْ أَنَّ مَشِيئَتَهُ جَارِيَةٌ عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ بِمَا يُنَاسِبُ أَحْوَالَ الْمَرْزُوقِينَ مِنْ بَسْطٍ أَوْ قَدْرٍ.."[1].

وإذا كانت آية بسط الرزق الثانية في سورة الشورى هي آخر الآيات الواردات في القرآن بهذا الصدد مشتملة على لفظ البسط والقدر، وإن كان التركيب قد اختلف فصار فعل البسط ماضياً بعد أن كان مضارعاً، وجاء فعلاً للشرط، كما عُبِّر عن القدر بالاسم دون الفعل فقد كان فيما مضى من آيات يأتي بصيغة الفعل المضارع(ويقدر) ولكنه هنا في آخر آية جاء اسماً (بقدر)، وغير ذلك من الاختلافات التي سيأتي بيانها لاحقاً.

أقول إذا كانت هذه الآية هي الأخيرة في هذا الحديث فإنها قد تضمنت العلة التي من أجلها يبسط الله الرزق أو يقدره وفق مشيئته المبنية على علمه وقدرته وحكمته، وأن ذلك الأمر لا يخص أحداً من خلقه، بل هو عام لهم جميعاً مؤمنهم

(١) ينظر التحرير والتنوير ج ٢٥ ص ٩١ وما بعدها بتصرف.

وكافرهم، يقول الطاهر بن عاشور مبيناً موقع هذه الجملة من سابقاتها "(عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [الشورى: ٢٦] أَوْ عَلَى الْمَجْمُوعِ مِنْ جُمْلَةِ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا [الشورى: ٢٦] وَمِنْ جُمْلَةِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

وَمَوْقِعُ مَعْنَاهَا مُوقِعُ الِاسْتِدْرَاكِ وَالِاحْتِرَاسِ فَإِنَّهَا تُشِيرُ إِلَى جَوَابٍ عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ فِي نَفْسِ السَّامِعِ إِذَا سَمِعَ أَنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُ لِلَّذِين آمَنُوا وَأَنَّهُ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أَنْ يَتَسَاءَلَ فِي نَفْسِهِ: أَنَّ مِمَّا يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُونَ سَعَةَ الرِّزْقِ وَالْبَسْطَةَ فِيهِ فَقَدْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَيَّامَ صَدْرِ الْإِسْلَامِ فِي حَاجَةٍ وَضِيقِ رِزْقٍ إِذْ مَنَعَهُمُ الْمُشْرِكُونَ أَرْزَاقَهُمْ وَقَاطَعُوا مُعَامَلَتَهُمْ، فَيُجَابُ بِأَنَّ اللَّهَ لَوْ بَسَطَ الرِّزْقَ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ لَكَانَ بَسْطُهُ مُفْسِدًا لَهُمْ لأَنَّ الَّذِي يَسْتَغْنِي يَتَطَرَّقُهُ نِسْيَانُ الِالْتِجَاءِ إِلَى اللَّهِ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى الِاعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ فَكَانَ مِنْ خَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ الْآجِلِ لَهُمْ أَنْ لَا يُبْسَطَ لَهُمْ فِي الرِّزْقِ، وَكَانَ ذَلِكَ مَنُوطًا بِحِكْمَةٍ أَرَادَهَا اللَّهُ مِنْ تَدْبِيرِ هَذَا الْعَالَمِ تَطَّرِدُ فِي النَّاسِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى [العلق: ٦، ٧]. وَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِ فَائِدَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ أَنْ لَا يَشْغَلَهُ غِنَاهُ عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي بِهِ يَفُوزُ فِي الْآخِرَةِ فَلَا تَشْغَلُهُ أَمْوَالُهُ عَنْهُ... وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَوْرِدًا كُلِّيًّا لِأَنَّ قَوْلَهُ لِعِبادِهِ يَعُمُّ جَمِيعَ الْعِبَادِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْكُلِّيَّةِ تَحْصُلُ فَائِدَةُ الْمَسْئُولِ عَلَيْهِ الْجُزْئِيِّ الْخَاصِّ بِالْمُؤْمِنِينَ مَعَ إِفَادَةِ الْحِكْمَةِ الْعَامَّةِ مِنْ هَذَا النِّظَامِ التَّكْوِينِيِّ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ بِمَنْزِلَةِ التَّذْيِيلِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْعُمُومِ، أَيْ أَنَّ اللَّهَ أَسَّسَ نِظَامَ هَذَا الْعَالَمِ عَلَى قَوَانِينَ عَامَّةٍ وَلَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَخُصَّ أَوْلِيَاءَهُ وَحِزْبَهُ بِنِظَامٍ تَكْوِينِيٍّ دُنْيَوِيٍّ وَلَكِنَّهُ خَصَّهُمْ بِمَعَانِي الْقُرْبِ وَالرِّضَا وَالْفَوْزِ فِي الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ"[1].

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ٩٣ بتصرف شديد.

فهذه الآية فيما أرى- بناءً على ما قاله ابن عاشور - تَذْيِيلٌ لحديث القرآن عن بسط الرزق وقدره، فقد تضمنت الحكمة العامة التي بُني عليها النظام الذي يحفظ الكون من الاختلال.

وليس معنى هذا أن البسط للرزق يستلزم البغي في كل حال، كما قد يفهم من الجملة الشرطية، وإنما يكون البغي إذا صادف الغنى نفساً خبيثةً يقول الطاهر بن عاشور موضحاً معنى الآية: (وَمَعْنَى الْآيَةِ: لَوْ جَعَلَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ فِي بَسْطَةٍ مِنَ الرِّزْقِ لَاخْتَلَّ نِظَامُ حَيَاتِهِمْ بِبَغْيِ بَعْضِهِمْ عَلَى بعض لِأَن بَعضهم الْأَغْنِيَاءَ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالْبَغْيِ لِتَوَفُّرِ أَسْبَابِ الْعُدْوَانِ... فَيَجِدُ مِنَ الْمَبْغِيِّ عَلَيْهِ الْمُقَاوَمَةَ وَهَكَذَا، وَذَلِكَ مُفْضٍ إِلَى اخْتِلَالِ نِظَامِهِمْ. وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ بَسْطَ الرِّزْقِ لِبَعْضِ الْعِبَادِ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ لَا يُفْضِي إِلَى مِثْلِ هَذَا الْفَسَادِ لِأَنَّ الْغِنَى قَدْ يُصَادِفُ نَفْسًا صَالِحَةً وَنَفْسًا لَهَا وَازِعٌ مِنَ الدِّينِ فَلَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْبَغْيِ، فَإِنْ صَادَفَ نَفْسًا خَبِيثَةً لَا وَازِعَ لَهَا فَتِلْكَ حَالَةٌ نَادِرَةٌ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَحْوَالِ السَّيِّئَةِ فِي الْعَالَمِ وَلَهَا مَا يُقَاوِمُهَا فِي الشَّرِيعَةِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَغَيْرَةِ الْجَمَاعَةِ فَلَا يُفْضِي إِلَى فَسَادٍ عَامٍّ وَلَا إِلَى اخْتِلَالِ نِظَامٍ) [1] .

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ٩٤ وما بعدها بتصرف.

المبحث الرابع

من الأسرار البلاغية لاختلاف الصياغة

بين آيات بسط الرزق وقدره في القرآن

إذا تأملنا الآيات الواردات لتقرير حقيقة أن بسط الرزق وقدره مرجعه إلى مشيئة الله عز وجل، سنجد أن جملة يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر تُعد هي أساس البناء، فربما تسبق بلفظ الجلالة الله مسبوقاً ب (أن)، كما هو الحال في سورة القصص أو لا تُسبق به، كما هو الحال في سورتي الرعد، والعنكبوت، وربما تسبق ب (إن ربك، مثل سورة الإسراء، أو إن ربي)، مثل سورة سبأ وقد تسبقها جملة مثلما جاء في سورة الشورى لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

وقد تفتتح الآية بسؤال مثل أولم يروا، أو أولم يعلموا، كما هو الحال في سورتي الروم والزمر، أو تُفتتح بأمر مثل: قل إن ربي، مثل سورة سبأ، وقد تفتتح بلفظ الجلالة الله كسورتي الرعد والعنكبوت، أو غير ذلك من الافتتاحات.

وقد تختتم الآية بجملة: إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، أو بجملة: إن الله كان بعباده خبيرا بصيرا أو بجملة: إنه بعباده خبير بصير، أو بجملة: إن الله بكل شيء عليم، أو بجملة: إنه بكل شيء عليم، أو تختتم بغير ذلك من الخواتيم.

وقد تخصص الجملة بقوله: (من عباده)، وقد لا تخصص، أو يُذكر متعلق بعد الفعل يقدر وهو (له).

وتبقى جملة يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر هي الأساس الذي ينبني عليه هذا كله.

والذي لا يماري فيه أحد أن كل حرف قد زيد في هذه الآيات أو أُنقِص منها، فإنه يكون لغاية بيانية تتسق مع مقصود السورة وسياق الآية، ولست أزعم قدرتي على الإحاطة بهذه الأسرار جميعاً، ولكن سوف أحاول أن ألم بأغلبها مستعيناً بما ذكره العلماء من قبل، وبما يسره الله لي من تدبر الآيات وفهمها.

١- الأسرار البلاغية في الجملة الأصل :

بتأمل أصل البناء وهو جملة يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر نجدها قد اشتملت على أربع خصائص بلاغية وهي: الطباق بين يبسط ويقدر، وحذف مفعول يشاء، ومفعول يقدر، والاستعارة في لفظي البسط والقدر، وتعريف المفعول به بأل.

أما الاستعارة فكائنة في قوله: يبسط ويقدر، حيث استعير البسط والقدر لزيادة الرزق، أو تضييقه استعارة تصريحية صرح فيها بلفظ المشبه به، وذلك بعد تشبيهه كثرة الرزق وزيادته ببسط الثوب ونحوه مما يُبسط بجامع الاتساع والامتداد في كلٍ، وبعد أن شبه التضييق بالقدر وهو التحديد بجامع المحدودية والانحصار في كلٍ، ثم استعار يبسط للكثرة والزيادة، واستعار يقدر للتضييق والتقتير استعارة تصريحية تبعية.

وقد أفادت هذه الاستعارة الدلالة على مدى قدرة الله عز وجل فالرزق في يديه يبسطه ويقدره، كما يبسط الإنسان ثوباً أو يطويه ففيه دلالة على التمكن، وتجسيم للمعنى في صورة حسية.

ثم إن كون الاستعارة تبعية، حيث جاءت في صورة الفعل المضارع، قد أفادت الدلالة على أن ذلك البسط والقدر لا يتوقف أبداً فهو يتجدد مرةً بعد مرة، إما لأشخاص مختلفين، أو لشخص واحد في أحوال مختلفة.

يقول الطاهر بن عاشور: "وَبَسْطُ الرِّزْقِ: تَيْسِيرُهُ وَتَكْثِيرُهُ، اسْتُعِيرَ لَهُ الْبَسْطُ وَهُوَ نَشْرُ الثَّوْبِ وَنَحْوِهِ لِأَنَّ الْمَبْسُوطَ تَكْثُرُ مِسَاحَةُ انْتِشَارِهِ.

وَقَدْرُ الرِّزْقِ: عُسْرُ التَّحْصِيلِ عَلَيْهِ وَقِلَّةُ حَاصِلِهِ اسْتُعِيرَ لَهُ الْقَدْرُ، أَيِ التَّقْدِيرُ وَهُوَ التَّحْدِيدُ لِأَنَّ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ يَسْهُلُ عَدُّهُ وَحِسَابُه" (١).

وأما عن حذف المفعول به في يشاء، وفي يقدر، فإنه قد حذف في الأول لإفادة العموم الذي يفيد طلاقة القدرة الإلهية، وبيان ذلك أننا لو ذهبنا نقدر المحذوف لقلنا لمن يشاء بسط الرزق له، أو لمن يشاء رحمته، أو لمن يشاء استدراجه، أو لمن يشاء إكرامه، أو لمن يشاء ابتلاءه، أو غير ذلك من التقديرات التي يمكن أن يحمل عليها حذف المفعول به.

وأما حذف المفعول به في الثاني فللاختصار لدلالة الأول عليه وتقديره ويقدر الرزق لمن يشاء.

وإن كنت أرى أن حذف المفعول به بعد الفعل (يقدر) إنما جاء ليصور المعنى، حيث ضاق التعبير فاختصرت الجملة لتصوير معنى تضييق الرزق وتقليله.

ويمكن القول أيضاً: إن حذف المفعول به يُشعِر بعدم وجوده في الواقع إذ تقدير الرزق وتقتيره يكاد يذهب به فلا يكون موجوداً أصلاً.

وأما عن تعريف المفعول به بأل فأغلب الظن أنه لأجل إفادة التعميم على معنى أن الله يبسط جميع أنواع الرزق ما كان منه حسياً، وما كان منه معنوياً، وبهذا يتضافر الحذف مع الاستعارة مع التعريف في تأكيد معنى طلاقة القدرة.

وأما عن الطباق فلا جدال في إفادته معنى القدرة المطلقة كذلك، لأن من يتهيأ له الجمع بين الشيء وضده لابد أن يكون واسع القدرة، ومعلوم ما للطباق من قيمة بلاغية عالية تتمثل في إيضاح المعاني وتوكيدها بجمعه بين المتضادات في حيز واحد، فكأن المتكلم أو المبدع عندما يعمد إلى الطباق أو المطابقة فإنه يقوم بدور الوسيط المصلح بين المتشاحنين، فيجمع بينهما في مكان واحد كجملة

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢١٤.

من النثر، أو بيت من الشعر، ويعطي لكل واحد منهما الفرصة ليعبر عن نفسه، حتى يتمكن المتلقي من إدراك الموقف من جميع أوجهه، وكثيرا ما تؤدي المواجهة بين المتخاصمين إلى إفشاء الأسرار، وانكشاف ما كان خافيا، ولست أظنني مغاليا حينما أقول: إن تلك العملية هي جوهر القيمة البلاغية لفن الطباق لأن فلسفة الطباق تقوم على توضيح المعاني بمواجهتها بنقيضها، ودائما النفوس تعجب وتطرب حين يعرض عليها الشيء وضده، لأنها حينئذ ترى الأمور على أكمل درجات الوضوح، والضد يظهر حسنه الضد.

إذن فقد جمع التركيب(يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) بين عدد من الخصائص البلاغية التي تساعده على أداء معنى طلاقة القدرة على أكمل وجه، وأبهى أسلوب.

٢- أسرار افتتاح الآيات بأسلوب من أساليب الإنشاء الطلبي.

وقد جاء الإنشاء الطلبي في مفتتح أربع آيات من آيات بسط الرزق، حيث افتتحت آيتا سورتي الروم والزمر بالاستفهام، وافتتحت آيتا سورة سبأ بفعل الأمر المباشر (قل) يقول تعالى في سورة الروم: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

ويقول تعالى في سورة الزمر: أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

ومن العجيب أن الآيتين قد اتفقتا في الختام، مثلما اتفقتا في الافتتاح.

ومعلوم أن "الاستفهام لون من الوان التعبير ينقل أدق المشاعر وأعمق الأحاسيس، ويبث أخفى الخواطر والهواجس باعثًا في نفس المتلقي شتى الإيحاءات المتوهجة المتداخلة فتحس نبض القلوب في نبض الكلمات وحرارة الانفعالات في التعبيرات، التي تنتفض حرارة وحياة، وهو أسلوب لا يعتمد المنهج العقلي المجرد بل يغلب عليه إثارة العواطف وشحن الوجدان فهو أسلوب وجداني بالدرجة الأولى ولا شك أن الاستفهام القرآني كغيره من وسائل الأداء حياة مليئة نابضة لا يعالج عالم الإنسان الداخلي والخارجي أو الأكوان المحيطة به والتحام الإنسان بها فحسب بل يمد جناحيه ليستوعب الزمان كله بأقسامه وأحداثه بل وما قبل الزمان وما بعده من نشأة الخلق ومشاهد البعث"(١) .

ومن أهم الأغراض التي جاء لها الاستفهام في القرآن الكريم، خصوصا مع فعل الرؤية بعد الهمزة، (التنبيه والتعجيب، وإثارة التأمل والتدبر في مظاهر خلق الله، وآثار قدرته وآياته المبثوثة في الكون) (٢) .

وقد مر بنا أن بسط الرزق وقدره وفق مشيئة الله من الآيات الدالات على قدرة الله، وبالغ حكمته، ولذلك فقد خُتمت الآية بقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، ولذلك أيضاً افتتحت بهذا الاستفهام الإنكاري الذي ينكر على المخاطبين عدم رؤيتهم لآية البسط والقدر في الأرزاق، كما أنكر عليهم من قبل عدم تفكرهم في أنفسهم، وعدم سيرهم في الأرض والنظر فيها للاعتبار يقول تعالى في سورة الروم: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا

(١) ينظر الأساليب الإنشائية في القرآن د. صباح دراز، ص ١٠٧، مطبعة الأمانة، مصر، ط ١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(٢) ينظر السابق ص ٢٥٦.

بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)

فلو استجاب المخاطبون للأمر بالتفكر والسير والنظر للاعتبار والتدبر لأدركوا حقيقة أن بسط الرزق وقدره مرجعه لمشيئة الله وفق حكمته وعلمه وقدرته.

ثم إن السورة معنية بتعداد آيات قدرة الله الدالة على وحدانيته، وقد ختمت كثير من الآيات بقوله: إن في ذلك لآيات... يقول تعالى في عدد من آيات السورة وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)

ولذلك فقد خُتمت آية بسط الرزق في هذه السورة بجملة: إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

ثم إن سورة الروم قد جاء ترتيبها في المصحف بعد سورتي القصص والعنكبوت، وقد ذُكر في الأولى ما حل بقارون، وحُكي عن قومه ما قالوه حينئذ، ثم ذكر في الثانية أن الله يرزق كل الدواب، وأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ثم جاءت الآية في هذه السورة لتحيل إلى ما مر مفتتحةً بالاستفهام الإنكاري بسبب

وضوح آية البسط والقدر، إما لما حكاه القرآن من قبل، وإما لوضوحها في أنفس المخاطبين المأمورين في أول السورة بالتفكر في أنفسهم.

وأما افتتاح آية الزمر بالاستفهام الإنكاري فَسِرُّه عندي بناءً على ترتيب السور في المصحف، وبناءً على ترتيب نزول سورة الزمر، حيث نزلت بعد سورة سبأ، أنه ينكر عليهم عدم علمهم بهذه الحقيقة، كيف؟ وقد أخبرهم النبي بها عند مناظرتهم ومجادلتهم، فقد أمره ربه في سورة سبأ وهي قد نزلت قبل سورة الزمر بأن يخبرهم بها، ثم خُتمت أولى الآيتين هناك بأن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة، وختمت ثانيتهما بأن الله هو خير الرازقين، فإذا اعتمدنا على ترتيب سور المصحف، فإن آية الزمر تحيل إلى الأمر بإخبارهم بهذه الحقيقة في سورة سبأ، وإذا اعتمدنا على ترتيب النزول، فهي تحيل إليها أيضاً لنزولها بعد سورة سبأ.

ويمكن أن يعلل أيضاً بأن سؤاله عن عدم علمهم كان الغرض منه الاستهزاء والسخرية منهم، خصوصاً بعد أن قال كافرهم إنما أوتيته على علم، فسئل عن علمه بحقيقة أن البسط والقدر بيد الله وفق مشيئته، فكأنه قال: أأوتيت علماً، ولم تعلم أن الله هو الباسط القابض، استهزاءً بعلمه المزعوم، ويؤيد هذا حرف العطف الواو بعد الهمزة لأنه من المرجح أن يكون قد عطف الكلام على محذوف، على النحو المبين آنفاً.

وقد ختمت آية الزمر بجملة: إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون مثلما خُتمت آية سورة الروم، وذلك لأن مقصود السورة هو إخلاص العبادة لله وحده، ونبذ ما عداه من الشركاء، ولذا فقد عُنيت بذكر العديد من الآيات والأدلة على الوحدانية، ولأن الرزق، وخصوصاً بسطه وقدره وفق المشيئة الربانية من أهم الآيات الدالة على القدرة والحكمة والعلم فقد خُتمت في هذه السورة بهذا الختام مثلما ختمت آية سورة الروم.

ومن الآيات التي تدل على عناية سورة الزمر بذكر دلائل التوحيد قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)

وقوله تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)

وقوله تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)

وقوله تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

يقول أبو جعفر الغرناطي معللاً اختلاف آيتي سورتي الروم والزمر بإنكار الرؤية في الأولى، وإنكار العلم في الثانية، معتمداً على سياق كل سورة: (في آية الروم: (أَوَلَمْ يَرَوْا) وفي الأخرى: (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا)، فللسائل أن يسأل عن الفرق؟ والجواب، والله أعلم: أن سورة الروم لما تقدم فيها قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) (الروم: ٨)، وقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (الروم: ٩)، والتفكر تردد نظر ومباثه واعتبار، والنظر المحال عليه فيما حضوا عليه من سيرهم في الأرض إنما هو استعلام وبحث واعتبار بحال من تقدمهم، ناسب ذلك قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا)... ولفظ رأى يصلح في الحالين، (يعني الدلالة

على العلم، أو الظن) ويقع بالاشتراك على المعنيين وعلى الإبصار، فناسب لتردد لفظه بين هذه المعاني، وإن كان في سورة الروم يراد به العلم، لما تقدم في السورتين قوله: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) وقوله: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) لجامع التردد حاصل في المتواطئ بلحظ التشخص، فوضح التناسب.

وأما سورة الزمر فلم يتقدم (بها ما تقدم) في سورة الروم مما يستدعي ذلك التناسب، فجيء بقوله: (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا)، فطوبق باللفظ المعنى من حيث لا تردد فيهما ولا اشتراك، وأيضاً فقد تقدم في هذه السورة قوله تعالى: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا) (الزمر: ٢) وقوله: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا) (الزمر: ١١) وقوله: (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي) (الزمر: ١٤)، والإخلاص مسبب عن العلم، وهو ثمرته، أعني ثمرة العلم، فناسب هذا قوله: (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) (الزمر: ٥٢)، فإنهم تسبب عن علمهم الإخلاص إن سبقت سابقة سعادة، فناسب هذا أتم مناسبة، فهذا وجه ثان من الجواب، وكأنه مما قدم فيه المسبب وهو الإخلاص بين يدي سببه وهو العلم، ووضح على هذا أن ما ورد هنا لم يكن ليناسب ما في سورة الروم، ولا ما ورد في سورة الروم ليناسب ما في سورة الزمر، والله أعلم) [١] .

ويبين الخطيب الإسكافي مناسبة كل عبارة لسياقها فيقول عن موضع سورة الروم: "كان الأليق بهذا المكان: (أو لم يروا) أي: أموالَ من يبسط الله له الرزق فيعلموا أن الله يوسع لمن يشاء، ويضيّق على من يشاء، وكلتا الحالتين مرئيتان عندهم مشاهدتان لديهم، فإنّ من بُسط له الرزق رُئي ماله، ولم يَخْف على المشاهد حاله، ومن انقلب أمره وانقطع خيره أدركت العين منه خلاف ما كان قبل،

(١) ينظر ملاك التأويل لأبي جعفر الغرناطي، جـ ٢ ص ٤٠٠، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، بدون.

فلما جاءت هذه الآية بعد ذكر النعمة إذا وُهبت، وحالِ الإنسان فيها إذا سُلبت، والنعمة مرئية لاق بهذا المكان (أَوَلَمْ يَرَوْا)"[1].

ويقول في موضع سورة الزمر: "قابل ما ادّعوه من العلم كما قال كافرهم: (إنما أوتيته على علم) بأن قال: هلاّ علمتم ما هو أوضح من أحوالكم، فتعلموا أن الخصب والجدب ليْسا بأيديكم، وكذلك المرض والشفاء ليْسا إليكم، وإنما ذلك ما تعلمونه عن بسط الله الرزق إذا أرسل السماء عليكم مدراراً، وما تتألمون منه إذا ضَنّ السحاب بقطره، وابتلي أحدكم بفقره، فكان (أولم يعلموا) أولى بهذا المكان من قوله: (أولم يروا) كما كانت (أو لم يروا) في سورة الروم أولى. والله أعلم"[2].

ويقول الكرماني معللاً مناسبة كل موضع لسياق سورته: "قَوْله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ) في سورة الروم، وَفِي الزمر (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا) لِأَن بسط الرزق مِمَّا يُشَاهد وَيرى فجَاء فِي هَذِه السُّورَة على مَا يَقْتَضِيهِ اللَّفْظ وَالْمعْنَى وَفِي الزمر اتَّصل بقوله (أُوتِيتهُ على علم) وَبعده (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) فَحسن (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا)"[3].

وبعرض آراء العلماء نجد أنهم قد حاولوا التفرقة بين الموضعين معتمدين على سياق آيات كل سورة، ولكن لم يلتفت أحد منهم- رحمهم الله- إلى ما أشرت إليه من ضرورة الانتباه إلى ترتيب السورة في السياق القرآني عند التعليل لاختلاف الصياغة بين الآيات، وقد سبق تفصيل القول في ذلك، مع بيان سر ختام الآيتين

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، تحـ محمد مصطفى آيدين، جـ ١ ص ١٠٤٩ وما بعدها بتصرف شديد، جامعة أم القرى، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

(٢) ينظر درة التنزيل جـ ١ ص ١٠٥٢ وما بعدها بتصرف.

(٣) ينظر البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني، تحـ عبد القادر عطا، جـ ١ ص ٢٠٣، دار الفضيلة، بدون.

في سورة الروم، وسورة الزمر بجملة واحدة، اعتماداً على مقصود كل سورة وسياقها.

وقد افتتحت آيتا البسط في سورة سبأ بفعل الأمر (قل) ويعرف العلامة محمود توفيق الأمر في البيان القرآني بتعريف خاص فيقول:

"وحقيقته في بيان الوحي (القول الطالب إيجاد فعل ممكن مراد غير حاصل وقت طلبه على الحال التي طلب عليها، مدلول عليه بافعل ونحوه)"[1].

وأما عن سر افتتاح آيتي البسط في سورة سبأ بفعل الأمر المباشر (قل) الموجه إلى النبي ، فظاهر، وذلك لأن سياق الآيات قد كان المجادلة والمناظرة بين الرسول، وبين الكافرين، فلقنه الله الجواب على مزاعمهم.

وقد عُنيت السورة بتلقين النبي الردود على افتراءاتهم من أولها فقال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣)

وقال تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢)

ويقول تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

(١) ينظر صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، محمود توفيق، ص ١٣، مطبعة الأمانة، مصر، ط ١، ١٩٩٣م.

ويقول تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

ثم تأتي الآيتان المشتملتان على ذكر البسط والقدر يقول تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

وأغلب الظن –عندي– أن المعركة بين الرسول وبين الكفار عند نزول هذه السورة قد كانت معركةً كلاميةً قولية، وهذا واضح فالسورة مكية، لذا فإن الله كان يُمِدُّ نبيه بأسلحة من سهام الكلمات ورماح الأقوال، ودروع العبارات التي تصد أقوالهم التي يظنونها قاتلةً، وقد افتتحت أغلب آيات هذه السورة بفعل الأمر قل، ليدل على أن الرسول مؤيد من ربه أولا، وليدل على أنه يوحى إليه ثانيًا مما يؤكد دعواه بالرسالة، وفيه إيماء إلى انهزام الكافرين، إذ المعركة ليست بينهم وبين محمد، وإنما المعركة بينهم وبين رب محمد الذي يُقِرُّون له بالخلق والقدرة، ولكنهم يشركون في عبادته، ولذلك فقد افتتحت جملة الرد بقوله: إن ربي.

وتؤكد هذا الرأي آيات السورة بعد ذلك فيقول تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ

جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)

وأما عن ختام الآية الأولى بقوله: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، فللإشارة إلى جهلهم بهذه الحقيقة، مما دعاهم إلى زعم ما زعموه من أفضليتهم، وعدم مؤاخذتهم وتعذيبهم استناداً إلى ما وسع عليهم من الأموال والأولاد.

وأما عن ختام الآية الثانية بقوله: وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، فيحمل على أن الخطاب للمؤمنين حثاً لهم على الإنفاق في سبيل الله يقول الطاهر بن عاشور: "وَجُمْلَةُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ تَذْيِيلٌ لِلتَّرْغِيبِ وَالْوَعْدِ بِزِيَادَةٍ، لِبَيَانِ أَنَّ مَا يُخْلِفُهُ أَفْضَلُ مِمَّا أَنْفَقَهُ الْمُنْفِقُ"(١).

٣- أسرار افتتاح الآيات بِجُمَلٍ خبرية مؤكدة، أو مرسلة.

ويكون ذلك حينما يراد من الآية الجواب عن سؤال مقدر، كما هو الحال في آية سورة الرعد يقول تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)

وقد مضى تفصيل القول في بلاغة موقع هذه الجملة، وخلاصته أنها استئناف بياني لكونها جواباً عن سؤال مقدر قد يهجس في نفوس المخاطبين من الكفار المهددين باللعنة وسوء الدار، حيث إنهم قد ظنوا أن التوسعة عليهم في الرزق دليل على كرامتهم، أو ظنوا أفضليتهم على المؤمنين لأجل ذلك، فقالوا في أنفسهم مالنا يوسع علينا، ويضيق على المؤمنين؟ أو لجواب عن سؤال يهجس في نفوس السامعين من المؤمنين، كيف يوسع على هؤلاء الكفار؟ ولماذا لم يعذبوا في الدنيا مثلما أوعدوا بالعذاب في الآخرة؟، فسيقت هذه الآية جواباً عن هذا السؤال

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٢٠.

الذي يهجس في نفوس الفريقين، و لبيان حقيقة رجوع البسط والقدر لمشيئة الله، وعدم ارتباطه بإيمان أو كفر، وأن الآخرة لا ينبغي أن تُقاس على الدنيا.

والسر في ختام هذه الآية بجملة: وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ، بناءً على أنها أول آية في القرآن تضمنت تلك الحقيقة بهذه الألفاظ، هو بيان حقارة الدنيا التي يتنافس عليها المتنافسون، ويتصارع لأجل حيازتها المتصارعون، فهي في حقيقة الأمر لا تعدو متاعاً زائلاً لا قيمة له، وقد دُلَّ على حقارتها بتنكير المقصور عليه (متاع)وتلك حقيقة أخرى غفل عنها الناس جميعاً، عبر عنها القرآن بأسلوب القصر موظفاً أسلوب النفي والاستثناء الدال على يقينية تلك الحقيقة وتوثيقها حيث قصر الحياة الدنيا إذا ما قيست بالآخرة، على كونها متاعاً زائلاً لا ينبغي التقاتل عليه، وخسران الآخرة لأجله.

ومعلوم أن طريق القصر بالنفي والاستثناء لا يأتي إلا عند الرغبة في توكيد الكلام فضل توكيد، وتقريره غاية التقرير، يقول الدكتور أبو موسى "ولا تلقاك هذه الأداة إلا حيث تلقاك النبرة العالية والنغمة الحاسمة والتعبير الشديد"(١).

فقد جاءت هذه الجملة على هذه الشاكلة في أول حديث القرآن عن حقيقة البسط والقدر تنفيراً من الدنيا ومتاعها الزائل، وترغيباً فيما عند الله عز وجل، وإيماءً إلى الجبلة الإنسانية المتصفة بالفرح والبطر عند سعة الرزق، والقنوط واليأس عند تقتيره، تلك الحقيقة التي تكررت تأكيداً في سياقات حديث القرآن عن بسط الرزق وقدره.

(١) ينظر دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ص ١٠٥، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

وجاءت آية البسط في سورة العنكبوت مفتتحةً بجملة اسمية وكان المبتدأ فيها هو لفظ الجلالة (الله)يقول تعالى اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)

لإفادة التخصيص، وذلك لبناء الخبر الفعلي على المسند إليه المقدم، كما هو الحال في آية سورة الرعد، يقول الطاهر بن عاشور: "وَتَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِإِفَادَةِ الِاخْتِصَاصِ، أَيْ اللَّهُ لَا غَيْرُهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ وَيَقْدِرُ"(١).

وسر ختام هذه الآية بجملة: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أن هذه الآية قد وردت في سياق الحث على الهجرة لأجل إخلاص العبادة لله، وحسن التوكل عليه، وقد أخبرت السورة من أول الأمر أنه لابد من فتنة الذين يدعون الإيمان، وأن الله سيعلم الصادق من الكاذب، يقول تعالى: الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)

ويقول تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)

ويقول تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢١ ص٢٧.

لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

فنجد أن السورة معنية ببيان علم الله عز وجل، وبيان أنه المستحق للعبادة، والنهي عن اتخاذ الأولياء والشركاء من دونه، ولأن بسط الرزق وقدره من دلائل الوحدانية والقدرة، والعلم المحيط الذي عُنيت بإثباته السورة فقد ناسب أن تُختم هذه الآية بإثبات علم الله بكل شيء مؤكداً، اتساقاً مع الجو العام في السورة، ويؤيد هذا قوله تعالى في السورة بعد آية البسط التي ختمت بإثبات علم الله بكل شيء وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤). فإن هذه الآية تحيل إلى آية سورة الرعد التي سبقت والتي ختمت بقوله: وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع، وتنفي عنهم العلم بهذه الحقيقة.

ويقول الطاهر بن عاشور معللاً ختام هذه الآية بهذه الجملة: "وَالتَّذْيِيلُ بِقَوْلِهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لِإِفَادَةِ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ جَارٍ عَلَى حِكْمَةٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ صَبْرَ الصَّابِرِينَ وَجَزَعَ الْجَازِعِينَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [العنكبوت: ٣]"(١)

ويكون افتتاح آية البسط بجملة اسمية مؤكدة بإن كما جاء في سورة الإسراء قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(٣٠)

وقد مر في بيان بلاغة موقع هذه الآية أنها ربما تكون جواباً عن سؤال مقدر، وربما تكون تعليلاً لحكم سابق، وأنها من الضرب الطلبي الذي يحسن فيه توكيد الخبر، فلأجل هذا كله افتتحت هذه الآية بجملة خبرية مؤكدة بإن.

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢١ ص ٢٨.

وأما عن سر افتتاحها بلفظ الرب المضاف إلى ضمير المخاطب، واختتامها بقوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا، فيمكن تعليله بأن السورة معنية من أولها ببيان عبودية الخلق لله عز وجل وأن الله هو رب جميع الخلائق، فناسب أن تفتتح هذه الآية بلفظ إن ربك، وتختتم بإثبات أن الله كان بعباده خبيراً بصيراً، خصوصاً أن معجم السورة حافل بألفاظ دالة على الربوبية والعبودية.

وقد جاءت آية بسط الرزق في سورة القصص مفتتحة بجملة خبرية معطوفة على ما قبلها، وجاءت جملة (ويكأن الله يبسط) في محل نصب مقول القول [1] قال تعالى:

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

فهذه الآية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما قبلها، لأنها تذكر مشهداً مهماً من مشاهد قصة قارون، ذلك المشهد الذي تتبدل فيه الأحوال، وتنكشف الخفايا بعد أن أدرك هؤلاء القوم أنهم كانوا على خطأ عندما تمنوا لأنفسهم ما كان عند قارون، أدركوا ذلك بعد معاينتهم لما حل بقارون من الخسف، وقد عبر القرآن أبلغ تعبير عن ذلك التبدل بأن طابق بين الفعل أصبح الذي افتتحت به الآية إشارةً إلى الفجر الجديد الذي انبلج نوره في قلوب هؤلاء القوم، وبين لفظ بالأمس الذي يذكر بغوايتهم التي كانوا عليها.

وفي إيقاع الفعل تمنوا على المفعول به مكانه إشارة لطيفة، وهي أن الأمر المتمنى يكون شيئاً محبوباً، وأن معنى المكان الواقع عليه فعل التمني هو المكانة

(١) ينظر الجدول في إعراب القرآن محمود صافي، جـ ٢٠ ص ٢٩٨، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط ٤، ١٤١٨ هـ، وينظر إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش، جـ٧ ص ٣٧٨، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط ٤، ١٤١٥ هـ..

والمال والغنى والسلطة وغير ذلك مما كان لقارون، ولكن هذه الآية جاءت بعد ذكر خسف قارون، وانتقال مكانه من فوق الأرض التي كان يتيه عليها عجباً وغروراً، إلى باطن الأرض يقاسي ويلات العذاب، فكأنه قد دار بخلد هؤلاء الذين تمنوا مكانه بالأمس ما لو كانوا قد حازوا مكانه الذي كان له بالأمس فلا ريب أنهم كانوا سينالون مكانه الذي آل إليه اليوم، وكان ذلك الخاطر الذي دار بعقولهم هو دافعهم إلى التعجب الشديد الممزوج بالحسرة والندم على ما قالوه لذا فإنهم قالوا: ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر موظفين لفظ وي الدال على التعجب والندم في أول قولهم وأكدوا جملة البسط والقدر بأن، لأنهم أدركوا أن بسط الرزق قد يكون استدراجاً للعبد مثلما كان حال قارون، وعاهدوا أنفسهم على الإيمان، لإدراكهم أنه لا يفلح الكافرون.

ولذا فقد افتتحوا جملة الختام بلفظ ويكأن الدال على ما مضى بيانه من المعاني.

وقد بان بهذا السر في افتتاح الآية بجملة خبرية، واختتامها بهذا الختام دون غيره.

وقد تفتتح آية البسط بجملة خبرية مع تصرفٍ في ترتيب أركانها، وذلك ما جاء في الآية الأولى للبسط في سورة الشورى في قوله تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

فقد قصر مقاليد السموات والأرض على كونها له، بتقديم المسند على المسند إليه، وسبق أن قلت إن آيتي البسط في سورة الشورى هما آخر ما ورد من حديث القرآن عن هذا الأمر، ولذا فقد اشتملتا تعليلات لهذا الحكم، فإذا كان الله وحده هو المتصرف في خزائن السموات والأرض، فلا جدال في أن بسط الرزق وقدره يرجع إلى مشيئته، إن شاء بسط، وإن شاء قدر.

يقول الزمخشري: "(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك؛ وهي المفاتيح"(١).

ويعلق الطيبي على هذا بقوله: "قوله: (أي: هو مالك أمرها وحافظها)، قال القاضي: أي: لا يتمكن من التصرف فيها غيره، وهو كناية عن قدرته وحفظه لها، وفيها مزيد دلالة على الاختصاص؛ لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها. وفي قوله: " مزيد دلالة على الاختصاص" إشارة إلى أن التقديم للاختصاص أيضًا"(٢).

وجملة له مقاليد السموات والأرض وما بعدها حتى نهاية الآية ختام لطائفة من الآيات التي تتحدث عن طلاقة القدرة لله عز وجل، فهي خبر لمبتدأ سابق وما بعدها خبر أيضاً يقول تعالى: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

وبتأمل هذه الآيات يتبين لنا لماذا خُتِمَتْ بجملة إنه بكل شيء عليم، وذلك أنه قال من قبل: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

(١) ينظر الكشاف جـ ٤ ص ١٤٠.

(٢) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف جـ ١٣ ص ٤٢٣.

فبعد أن أمرهم بأن يردوا حكم ما اختلفوا فيه إلى الله بين أن الله بكل شيء عليم تعليلا لهذا الحكم وفيه تعليلٌ أيضاً لبسط الرزق وقدره، ولكن لماذا لم تكن الجملة إن الله بكل شيء عليم وقد جاءت بهذه الصيغة في سورة العنكبوت؟

أقول: إن تعليل ذلك يرجع إلى ذكرها من قبل في ختام آية سورة العنكبوت، وذلك لما افترضناه من أول الأمر من أن حديث القرآن عن بسط الرزق وقدره حديث متصل من أوله إلى آخره، فلما أظهر لفظ الجلالة هناك، أرجع إليه الضمير هنا.

هذا إن نظرنا إلى حديث القرآن عن البسط والقدر نظرة كلية تضع في اعتبارها التتابع والتسلسل المنطقي لهذا الحديث، فإن أبيتَ، فلك في سياق الآيات القريب جواب بمثل ما قلناه في السياق البعيد.

٤- أسرار اختلاف الصياغة بزيادة بعض المتعلقات على جملة الأصل.

وقد ورد في بعض آيات بسط الرزق وقدره في القرآن الكريم زيادة لقوله: (من عباده)، وزيادة لقوله: (له) فقد جاء في قوله تعالى في سورة القصص: وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

فنجد الجار والمجرور من عباده قد زيد بعد الصلة يشاء : يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ، ولا نجد الجار والمجرور (له)

وأغلب الظن أن تلك الزيادة قد جاءت، لورود هذه الآية في قصة قارون الذي طغى وبغى، وأنكر نعمة الله وفضله عليه، مما جعل من نفسه إلهاً، أو مما يجعل العامة قد يظنون فيه هذا، ولكنهم بعد أن عاينوا ما لحق به من الخسف، أدركوا أنه ليس سوى عبد من عباد الله، يجري عليه ما يجري عليهم، ولذا فقد زيد الجار والمجرور (من عباده).

يقول البقاعي: "ولما كانت القصة لقارون، وكان له من المكنة في الدنيا ما مضى ذكره، وكانت العادة جارية بأن مثله يبطر وقد يؤدي إلى تألهه، قال منبهاً بالإيقاع به على الوجه الماضي أنه من جملة عبيده، لا فرق بينه وبين أضعفهم بالنسبة إلى قدرته: (من عباده)"[1] .

ويقول الطاهر بن عاشور: "وَفَائِدَةُ الْبَيَانِ بِقَوْلِهِ مِنْ عِبادِهِ الْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّهُ فِي بَسْطَةِ الْأَرْزَاقِ وَقَدْرِهَا مُتَصَرِّفٌ تَصَرُّفَ الْمَالِكِ فِي مِلْكِهِ إِذِ الْمَبْسُوطُ لَهُمْ وَالْمَقْدُورُ عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ فَحَقُّهُمُ الرِّضَى بِمَا قَسَمَ لَهُمْ مَوْلَاهُمْ"[2].

وإذا ما عدنا إلى السياق العام لحديث القرآن عن البسط والقدر، فإننا نجد آية سورة الإسراء قد خُتِمت بقوله: إنه كان بعباده خبيراً بصيرا، وجاءت آية سورة القصص تالية لها في ترتيب المصحف متضمنةً قصة قارون وما كان من أمر بغيه وطغيانه، وإنكاره نعمة الله عليه فزاد في التركيب فيها بيان أنه من جملة العباد الذين يدخلون تحت قوله في آية الإسراء: إنه كان بعباده خبيراً بصيراً.

وجاء في سورة العنكبوت زيادة (من عباده)، وزيادة (له) قال تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)

فلما عُرِف من الآية السابقة في حديث القرآن عن بسط الرزق وقدره في سورة القصص أن البسط والقدر بمشيئة الله، وأن الخلق جميعاً عباده يتصرف في أرزاقهم على حسب مشيئته التابعة لقدرته وحكمته، فإنه قد يهجس في نفوس البعض سؤال عن الحكمة من قدر الرزق هل يكون دليلاً على رضا الله، أو يكون أمارة على سخطه خصوصاً في حال المؤمنين المقتر عليهم، فجاء الجواب في هذه الآية في سورة العنكبوت بزيادة الضمير العائد إلى اسم الموصول (من) الذي صلته

(١) ينظر نظم الدرر جـ ١٤ ص ٣٦٢.

(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢٠ ص ١٨٨.

(يشاء)، والمجرور باللام(له)، ليفيد أن تقتير الرزق على المؤمن يكون خيراً له إذا صبر ورضي بقضاء الله، ولذا قال: ويقدر له، والأصل أن يُقال: ويقدر عليه.

وقد يرجع الضمير إلى لفظ الجلالة الله، وحينئذ يكون التقدير أن الله يقدر الرزق على من يشاء لأجله هو أي لكي يلجأ إليه عباده متضرعين سائلين راجين فضله، أو لكي تظهر قدرته، خصوصاً إذا كان البسط والقدر يتعاوران على شخص واحد.

يقول البقاعي: "ولما كان ذلك إنما هو لمصالح العباد وإن لم يظهر لهم وجه حكمته قال: (له) أي لتظهر من ذلك قدرته وحكمته، وأنت ترى الملوك وغيرهم من الأقوياء يفاوتون في الرزق بين عمالهم بحسب ما يعلمون من علمهم الناقص بأحوالهم، فما ظنك بملك الملوك العالم علماً لا تدنو من ساحته ظنون ولا شكوك"(١).

ويقول الزمخشري: "فإن قلت: الذي رجع إليه الضمير في قوله وَيَقْدِرُ لَهُ هو من يشاء، فكأن بسط الرزق وقدره جعلا لواحد. قلت: يحتمل الوجهين جميعا:

أن يريد ويقدر لمن يشاء، فوضع الضمير موضع من يشاء، لأن لِمَنْ يَشاءُ مبهم غير معين، فكان الضمير مبهما مثله، وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة"(٢).

ويعلق الطيبي على هذا فيقول: "قوله: (الذي رجع إليه الضَّميرُ) يعني: إنَّ الضَّميرَ المجرورَ في قوله عائد إلى "مَنْ"، فيَلْزمُ منه أن يَجعلَ القَبْضَ والبَسْطَ لواحدٍ.

(١) ينظر نظم الدرر جـ ١٤ ص ٤٧١.

(٢) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٤٦٢.

وأجاب أن الضَّميرَ غيرُ عائدٍ إلى "مَنْ"، بل وَضعَ موضعَ "من يشاء"، بجامع كونهما مبهمتين فيتعدد المرزوق، ويجوز أن يرجع إلى "من"، ويُرادَ به شخصٌ واحد، فيتعدد بحَسْبِ أحواله فيبسطُ له تارةً ويُقدِّر له أخرى.

وقلت: يمكنُ أن يرجعَ إلى "مَنْ"، ويرادَ به العمومُ بدليل بيانِه بقوله: (مِنْ عِبَادِهِ)، فيكونَ التعددُ بحَسبِ أشخاصِه، فالمعنى: إنَّ الله يبسطُ رزقَ بعضٍ ويُقدِّرُ رزْقَ بعضٍ، كما يقول: أكرمْتُ بني تميمٍ وأهنتُهم، ويريد البعضَ بقرينةِ المقام"[1].

ويعلل الطاهر بن عاشور لزيادة (له) في هذه الآية بقوله: "وَزِيَادَةُ لَهُ بَعْدَ وَيَقْدِرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دُونَ آيَةِ سُورَةِ الرَّعْدِ وَآيَةِ الْقَصَصِ لِلتَّعْرِيضِ بِتَبْصِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ابْتُلُوا فِي أَمْوَالِهِمْ مِن اعْتِدَاءِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهَا كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ آنِفًا: وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا [العنكبوت: ٦٠] بِأَنَّ ذَلِكَ الْقَدْرَ فِي الرِّزْقِ هُوَ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ لِمَا يَنْجَرُّ لَهُمْ مِنْهُ مِنَ الثَّوَابِ وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ، فَغُلِّبَ فِي هَذَا الْغَرَضِ جَانِبُ الْمُؤْمِنِينَ وَلِهَذَا لَمْ يُعَدَّ يَقْدِرُ بِحَرْفِ (عَلَى) كَمَا هُوَ مُقْتَضَى مَعْنَى الْقَدْرِ"[2].

وأما زيادة (من عباده)، وزيادة (له) في آية سورة سبأ في قوله تعالى: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

فقد مر بيان أن هذه الآية في خطاب المؤمنين حثاً لهم على الإنفاق في سبيل الله، ولذلك فقد شرفهم بزيادة (من عباده)، وبزيادة (له) تسليةً لفقرائهم بأن الرضا بتقتير الرزق يورثهم ثواباً عظيماً.

يقول الطاهر بن عاشور مبيناً سر خلو الآية الأولى في سورة سبأ من الزيادة، ووجودها في الثانية، وذاكراً سر زيادة (له): "وَكَانَ مَا تقدم حَدِيثا عَن بسط

(١) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف جـ ١٢ ص ١٩٨.

(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢١ ص ٢٧.

الـرِّزْقَ لِغَيْـرِ الْمُـؤْمِنِينَ فَلَـمْ يَنْعَمُـوا بِوَصْـفٍ مِـنْ عِبـادِهِ لِأَنَّ فِـي الْإِضَـافَةِ تَشْـرِيفًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي هَذَا امْتِنَانٌ عَلَى الَّذِينَ يَبْسُطُ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ بِأَنْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُمْ فَضْلَ الْإِيمَـانِ وَفَضْـلَ سَـعَةِ الـرِّزْقِ، وَتَسْـلِيَةٌ لِلَّـذِينِ قَـدَرَ عَلَـيْهِمْ رِزْقَهُـمْ بِـأَنَّهُمْ نَـالُوا فَضْـلَ الْإِيمَانِ وَفَضْلَ الصَّبْرِ عَلَى ضِيقِ الْحَيَاةِ.

وَفِـي تَعْلِيقِ لَـهُ بِ يَقْدِرُ إِيمَـاءٌ إِلَـى أَنَّ ذَلِكَ الْقَدْرَ لَا يَخْلُـو مِنْ فَائِدَةٍ لِلْمَقْدُورِ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَهِيَ فَائِدَةُ الثَّوَاب على الرضى من قُسِمَ لَهُ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْحِسَابِ عَلَيْـهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(١).

فإذا ما استثنينا آية سورة القصص فإن زيادة(من عباده) لا تكون إلا في آية بسط الرزق وقدره في خطاب المؤمنين، وكذلك زيادة (له) لا تكون إلا في خطاب المؤمنين، لبيان أن في قدر الرزق والصبر عليه والرضا بقضاء الله خيراً يغفل عنه كثير منهم.

ونلحظ أن زيادة (من عباده، وزيادة (له) معاً لم تأت إلا في سورتي العنكبوت وسبأ، وأنهما كانتا لخطاب المؤمنين كما مر بيانه.

٥- أسرار الصياغة في آية ختام حديث القرآن عن البسط والقدر في سورة الشورى.

جاء قوله تعالى في سورة الشورى: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)

ختاماً لحديث القرآن عن بسط الرزق وقدره، ولذا فقد تضمن تعليلاً لعدم التسوية بين العباد في البسط، أو لعدم جعل جميع العباد مبسوطاً لهم الرزق، ولبيان الحكمة من التفاوت.

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢١٩.

فجاءت الجملة الشرطية في أول الآية ، لتدل على أن البغي العام لم يكن، لأن البسط العام لم يكن، وقد عبر عن هذا المعنى بتوظيف أداة الشرط لو التي هي لما كان سيقع لوقوع غيره[1]، وبما أن البسط العام لجميع الخلق لم يكن، فإن انتشار البغي وشموله للكون قاطبة لم يكن كذلك.

وبهذا يتبين أن عدم عموم البسط في الرزق، قد كان لمصلحة الخلق، وحفاظاً على استمرارية الحياة.

يقول النسفي في تفسير هذه الآية: "(وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ) أي لو أغناهم جميعاً (لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) من البغي وهو الظلم أي لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا لأن الغنى مبطرة مأشرة وكفى بحال قارون وفرعون عبرة أو من البغي وهو الكبر أي لتكبّروا في الأرض (وَلَكِن يُنَزِّلُ) (بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ) بتقدير يقال قدره قدرا وقدراً (إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) يعلم أحوالهم فيقدر لهم ما تقتضيه حكمته فَيُفْقِر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا وما ترى من البسط على من يبغي ومن البغي بدون البسط فهو قليل ولا شك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب"[2].

(١)ينظر الكتاب لسيبويه، تحـ عبد السلام هارون، جـ٤ ص ٢٢٤، مكتبة الخانجي القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.

(٢) ينظر تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحـ يوسف علي بديوي، جـ ٣ ص ٢٥٥، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

الخاتمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد

فقد كان هذا بحثاً بعنوان (من أسرار البيان في آيات بسط الرزق وقدره في القرآن) انتهيت فيه إلى عدد كبير من النتائج أورد أهمها فيما يأتي:

١- إن من عجيب أمر القرآن أنك إذا عمدت إلى بعض آياته التي تدور حول موضوع واحد، وتتناول قضيةً بعينها، وقمت بضم بعضها إلى بعض على حسب تسلسلها في السياق القرآني، ثم نظرت في أولها وأوسطها وآخرها وجدت تسلسلاً منطقياً عجيباً، وكأن هذه الآيات قد صيغت على هذا النحو من أول أمرها، ولم تكن كل وحدة من هذا الكل المتكامل المتولد من ضم بعضها إلى بعض، جزءاً أصيلا يضطلع بدور بالغ الأهمية في سياق سورة من سور القرآن، وذاك لون آخر من ألوان البلاغة والإعجاز.

٢- التسلسل المنطقي، والارتباط الوثيق، والتتابع العجيب الذي جاءت عليه آيات بسط الرزق في القرآن الكريم، فإني أكاد أجزم بأننا لو حاولنا أن نرتب هذه الآيات ترتيباً آخر غير الذي ورد في السياق القرآني، لأفسدنا تسلسل المعاني، وفرقنا بينها تفريقاً لا يلتئم به شملها أبداً، وذلك لبناء بعضها على بعض، ولإحالة بعضها إلى بعض، ولِنمو المعنى في آية لاحقة بعدما كان جَنيناً في سابقتها، ولإزالة بعضها لشبهات تثيرها بعضها، ولتضمن بعضها إجابات لأسئلة أثارته سابقاتها، ولِمراعاتها لطبيعة النفس البشرية التي تتلقى الأمر بشيء من الريبة، ثم تذعن له إن أقيمت عليه الأدلة وَعَضَّدَتْه الشواهد والبراهين، وقد تعاند وتنكر لِهَوًى ، وغير ذلك من الأحوال التي تطرأ على المتلقي، والتي نراها قد روعيت في تسلسل آيات بسط الرزق وقدره في السياق القرآني.

٣- ترجيح كون ترتيب السور في المصحف قد كان بتوقيف من النبي، ولم يكن باجتهاد الصحابة- عليهم رضوان الله-، وذلك بناءً على ما أثبته البحث من التسلسل المنطقي في آيات بسط الرزق في السياق القرآني العام، مما يُعد وجهاً من وجوه الإعجاز.

٤- إن تكرار أصل المعنى في آيات القرآن الكريم، مع اختلاف الصياغة اختلافاً يسيراً، قد كان من وجوه بلاغة القرآن وإعجازه، ذلك الوجه الذي يخفى على كثير ممن ساءت سرائرهم، فطعنوا به في القرآن، وقد كان البحث رداً على هذا الطعن، بتحليله الآيات المتشابهة الواردة في آيات بسط الرزق، وبيان الفروق البيانية بينها التي تقطع بإعجاز القرآن

٥- عمد القرآن إلى تصريف القول في حقيقة أن الله هو الذي يبسط الرزق ويقدره وفق مشيئته المبنية على علمه وحكمته وقدرته، إذ أن هذه الحقيقة من الحقائق المتعلقة بقدرة الله المطلقة وبالدلالة على وحدانيته سبحانه، ولذا فقد اقتضت بلاغة القرآن وإعجازه تصريف القول في هذه الحقيقة تصريفاً تأكيدا وتثبيتاً لهذه النعمة، وغرسها في نفوس العباد، واقتلاع ما قد يعاندها من القلوب والعقول.

٦- وردت آيات بسط الرزق وقدره في القرآن الكريم في السور المكية فقط، وذلك لعناية هذه السور ببيان قدرة الله عز وجل، وأنه المستحق للعبادة دون غيره، وذلك لأن من أهم خصائص السور المكية الدعوة إلى التوحيد، وإثبات الرسالة، وإثبات اليوم الآخر، والوعد والوعيد، وجدال المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونيّة، وإذا كان إثبات بسط الرزق وقدره لله عز وجل من دلائل قدرته ووحدانيته، تبين لنا السر في ورود آيات بسط الرزق في السور المكية دون غيرها من السور المدنية.

٧- جاءت كل آية من آيات بسط الرزق وقدره في القرآن مستقرةً في موقعها من السورة متسقةً أتم اتساق مع مقصودها الأعظم وغرضها العام، فلو حاولت تقديم الآية أو تأخيرها عن الموقع الذي وردت فيه لاختل النظم اختلالاً شديداً، ولانقض بناء المعاني داخل السورة، وقد اجتهد البحث لتأييد هذه الحقيقة بالأدلة الدامغة، عند تعرضه لبلاغة موقع كل آية من آيات بسط الرزق في سياق سورتها، كما هو موضح في مواضع مختلفة.

٨- تأثرت كل آية من آيات بسط الرزق في بنائها ومعجمها بالسمات البيانية، والخصائص التعبيرية، والمفردات اللغوية التي تغلب على السورة التي ترد فيها، فتفتتح بافتتاح، أو تختتم باختتام يتسق مع سوابقها ولواحقها، مثلما نجد في آيتي سورة سبأ من الافتتاح بفعل الأمر، وفي آية سورة الروم من الاختتام بجملة: إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، وغير ذلك مما تجده مبثوثاً في صفحات البحث..

٩- أقر البحث لكثير من العلماء بما قالوه عن مقصود السور التي اشتملت على آيات بسط الرزق وقدره، ولكنه عمل على استنباط أمور يزعم أنه هُدي إليها، لم يطلع عليها في كتاب ولا بحث آخر، ومن ذلك مثلاً تأويله للآية المشتملة على ذكر آيتي الليل والنهار في سورة الإسراء، وأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بآية بسط الرزق وقدره في السورة، حيث إن هاتين الآيتين تمثلان ما يطرأ من أحوال على الإنسان، فهو في نهار النعمة، أو في ليل النقمة والحرمان، يستضيئ بنور الغنى، أو يتخبط في ظلمات الفقر.

١٠- إثبات أن القرآن معجز على كل وجه، وذلك أن البحث افترض من قبل أن الآيات التي تتحدث في موضوع واحد لو جمعت ورتبت على حسب سياقها في المصحف، فإنها تتوالى وتتسلسل تسلسلاً منطقياً يحير العقول، وافترض أيضاً أننا لو عمدنا إلى تلك الآيات الواردة في موضوع واحد ورتبناها على حسب النزول،

لوجدنا فيها من أوجه البلاغة ما يثير العجب، وقد حاول البحث تأكيد هذا الافتراض بالنظر إلى التتابع الحاصل في بناء بعض المعاني على بعض في آيات بسط الرزق في سور نزلت متتابعة، مثلما وجدنا في آية سورة القصص وآية سورة الإسراء، ومثلما وجدنا أيضاً في آية سورة الزمر وما ذهب إليه البحث عند تعليله لاختلاف الصياغة بين افتتاح آيتي سورة الروم وسورة الزمر اعتماداً على ترتيب نزولها.

١١- قد لوحظ على سياقات آيات بسط الرزق أنها غالباً ما تأتي للدلالة على قدرة الله المطلقة، وتأتي أيضاً عند الدعوة للتوحيد بالعبادة، وعند الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، وعند ذكر الإيمان والكفر، والضلال والهدى، والنعيم والجحيم، وعند تعداد دلائل القدرة والوحدانية.

١٢- قد اشتملت جملة أصل البناء وهي جملة يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر على أربع خصائص بلاغية وهي: الطباق بين يبسط ويقدر، وحذف مفعول يشاء، ومفعول يقدر، والاستعارة في لفظي البسط والقدر، وتعريف المفعول به بأل.، وقد تضافرت هذه الخصائص جميعاً في أداء معنى طلاقة القدرة، على النحو المبين آنفاً.

١٣- توصل البحث إلى تعليلات- ينفرد بها- لاختلاف الصياغة بين آيات بسط الرزق وقدره في القرآن الكريم، مثل: اختلاف آيتي سورة الروم، وسورة الزمر، حيث افتتحت الأولى بقوله: أولم يروا، وافتتحت الثانية بقوله: أولم يعلموا، ومثل افتتاح آيتي سورة سبأ بفعل الأمر (قل)، وافتتاح آيتي سورة الرعد، وسورة العنكبوت بلفظ الجلالة(الله)، وافتتاح بعض الآيات بجمل خبرية مرسلة أو مؤكدة، كما لم يغفل التعليل لاختلاف ختام كل آية من آيات بسط الرزق، والتعليل لزيادة بعض المتعلقات في بعض الآيات كزيادة (من عباده) في سور القصص والعنكبوت وسبأ،

وزيادة (لـه) في سورتي العنكبوت، وسبأ، على النحو المبين في موضعه من البحث.

هذا، وما كان من توفيق فمن الله وما كان من خطأ أو نسيان فمني، وحسبي أنني اجتهدت.

ولله الحمد أولا وآخرا

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تح . محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

٢. الأساس في التفسير لسعيد حوى، دار السلام القاهرة، ط ٦، ١٤٢٤هـ.

٣. الأساليب الإنشائية في القرآن د. صباح دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط ١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٤. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي دار الكتاب العربي بيروت، ط ٨، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

٥. إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط ٤، ١٤١٥ هـ..

٦. الإيضاح بتعليق البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب القاهرة، ١٩٩٩ م، ٢٠٠٠م.

٧. البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني، تحـ عبد القادر عطا، دار الفضيلة، بدون.

٨. البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحـ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.

٩. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

١٠. تفسير البيضاوي، تحـ محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.

١١. تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحـ يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

١٢. **الجدول في إعراب القرآن محمود صافي، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط ٤، ١٤١٨ هـ.**
١٣. **حاشية الطيبي على الكشاف، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط ١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.**
١٤. **درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، تحـ محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.**
١٥. دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.
١٦. **دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تحـ محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط ٣، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.**
١٧. **روح المعاني للألوسي، تحـ علي عبد الباري عطية دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ ١٤١٥هـ.**
١٨. **شرح دلائل الإعجاز د محمد إبراهيم عبد العزيز شادي دار اليقين، المنصورة مصر، ط ٢، ٢٠١٣م.**
١٩. **صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، محمود توفيق محمد سعد، مطبعة الأمانة، مصر، ط ١، ١٩٩٣م.**
٢٠. **في ظلال القرآن، السيد قطب، دار الشروق بيروت، القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ..**
٢١. الكتاب لسيبويه، تحـ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م .
٢٢. **الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.**
٢٣. **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي، دار المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٠٨، ١٩٨٧م.**
٢٤. **المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله يوسف جديع العنزي،. مركز البحوث الإسلامية، ليدز، بريطانيا، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.**

٢٥. ملاك التأويل لأبي جعفر الغرناطي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، بدون.
٢٦. الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، تح محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ١٤٠٨هـ.
٢٧. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار القلم، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
٢٨. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون.
٢٩. النظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، بدون.